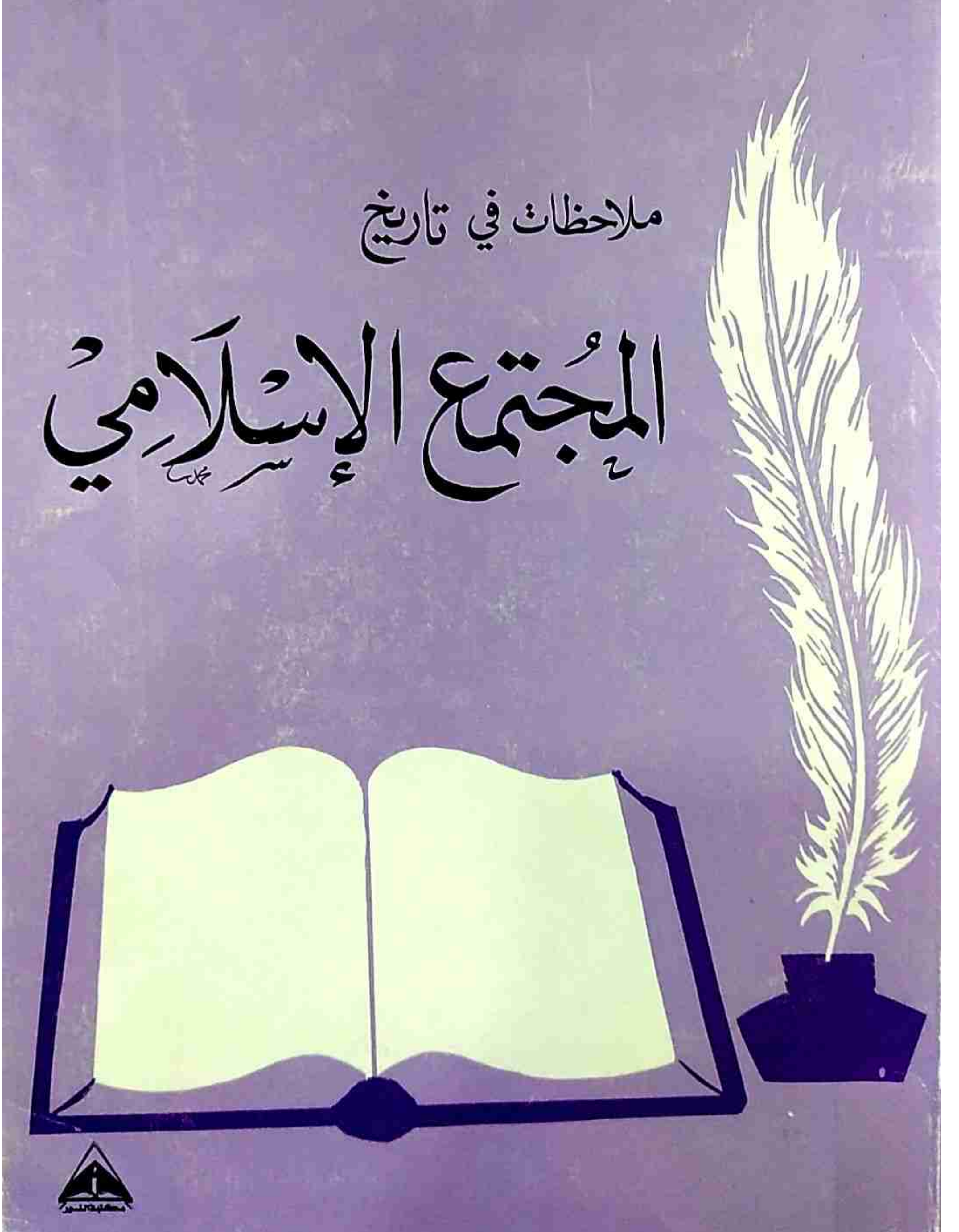
د. عماد الدين خليل



ملاحظات
في
تاريخ المجتمع الإسلامي

تأليف
د. عماد الدين خليل

مكتبة النور
٨ شارع الأهرام ، روكسي ، مصر الجديدة ، هاتف : ٥٨٤٥٦٣


مكتبة النور
٨ شارع الاهرام روكسي - مصر الجديدة
٢٥٨٤٥٦٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١)

تشكل المجتمع الإسلامي الأول على عين الله ورسوله ﷺ ، وكانت الخطوط الأساسية للتناقض لا تكمن في بنية هذا المجتع ، وإنما تمتد صوب الخارج ، أي بينه وبين المجتمعات الجاهلية من حوله . فمثلاً لم يكن هنالك صراع بين الرجل والمرأة ، أو الغني والفقير ، بل بين المسلم وغير المسلم ، وكان هذا يدفعه إلىٰ مزيد من التوحّد أفقياً وعمودياً .

في الحالة الأولىٰ كان يزداد تماسكاً ووضوحاً بين أفراده كافة ، وفي الحالة الثانية كان كل فرد من هؤلاء يسعىٰ لمزيد من التحقق بالعقيدة الجديدة لكي يكون أكثر قدرةً علىٰ التعبير عن مطالبها .

كانت هناك ـ بطبيعة الحال ـ مساحات في النسيج الاجتماعي لم تقدر ـ لسبب أو آخر ـ علىٰ التواؤم والانسجام مع الإيقاع العام للمجتمع الإسلامي ، ولكنها في نهاية التحليل مساحات محدودة فحسب ، وتبقىٰ المساحات الأكثر امتداداً واتساعاً تحمل توحدها وانسجامها .

لقد تمكن الرسول ﷺ من تشكيل المجتمع (القدوة) ، المجتمع النموذج الذي بلغ مرتقىً صعباً لم يكن بمقدور مجتمع في تاريخ البشرية أن يبلغه ، وكان هذا يدل علىٰ النجاح الباهر لرسول لله ﷺ في مهمته من جهةٍ ، وعلىٰ قدرة الإسلام من جهةٍ أخرىٰ علىٰ تغيير الإنسان والنسيج الاجتماعي بالتالي ، أو إعادة بنائها بتعبير أدق .

إن هذا السمو الذي تميز به المجتمع الإسلامي الأول ـ مجتمع الصحابة الكرام رضي الله عنهم ـ لا يقتصر على حالةٍ دون حالة ، ولا يتحدد في نطاقٍ دون آخر ، لقد أعيد بناء الإنسان من جديد ، وكانت الخيوط

المتفرقة التي تنسج رقعة المجتمع الوليد على قدر من المتانة والإتقان بحيث كان بمقدور المجتمع المتمخض عن الحركة الإسلامية أن يصنع المستحيلات وأن يضرب مثلاً عملياً على قدرة الجماعة البشرية المؤمنة أن تمارس - بحق - مهمة استخلافها العمراني في العالم .

على كافة المستويات وبتوازٍ ملحوظٍ كان المجتمع الإسلامي يتحرك إلى فوق ابتداءً من أولويات التحقق بالمنظور العقيدي للعالم وانتهاءً بالتنفيذ النادر لمطالب العبادة بمفهومها الشامل ، مروراً بمسألة القيم الخلقية ، والمعاملات والآداب والسلوك ، وبمسألة أخرى لا تقل أهمية هي قدرة هذا المجتمع على العطاء الدائم والاستجابة المتواصلة للتحديات ، على حماية ذاته من التراخي الذي هو نقيض التوتر ، وعلى أن يكون باستمرار قديراً على الفعل الحضاري .

وكان هذا المجتمع (حركياً) بالمفهوم الشامل للحركة ، رفض السكون أو الانغلاق منذ اللحظات الأولى ، وظل يتقدم صُعُداً صوب الأهداف المرسومة ، وهو في الوقت نفسه يتسع ويزداد امتداداً في الطول والعرض والعمق لكي ما يلبث بعد فترة لا تتجاوز العقود المحدودة من الزمن أن يكون أكثر المجتمعات البشرية تميزاً وتألقاً واتساعاً في العالم .

إن الإسلام الذي كان يقود هذا المجتمع ، ويصنعه ، إنما هو دين الحركة الدائمة ، والمجتمع الذي يعبّر عنه سوف يتحرك باستمرار دون أن تكون هناك جدران نهائية يقف عندها ويلقي عصا الترحال . ليس ثمة تجلٍّ للعقل الكلّي المتوحد في العالم كما يرى المثاليون ، وليس ثمة توقف لصراع النقائض باستلام الطبقة العاملة مقاليد السلطان كما يرى الماديون ، إنما هو الجهاد الماضي إلى يوم القيامة كما يقول الرسول ﷺ ، جهاد على مستوى النفس هو الجهاد الأكبر ، وآخر على مستوى الزمن والمكان هو الجهاد الأصغر ، ولن

يتوقف الجهاد علىٰ جبهتيه العريضتين هاتين ما دامت هنالك نفس بشرية تتشكل بالإيمان فتزداد نضارة وتألّقاً ، وما دام هنالك ضلال أو كفر أو طاغوت أو ظلم أو مروق علىٰ صفحة العالم يتطلب حركةً للوي عنقه ووقفه عن ابتزاز الإنسان وإصابته بسرطان العجز والعبودية والتآكل والدمار .

إن حركة المجتمع الإسلامي ترتبط بقضية الإنسان في الأرض ، فما دام للإنسان قضية فإنه يتوجب علىٰ المجتمع المسلم أن يتحرك تلبية للنداء . إنها عملية صياغة مستمرة ، أو تشكّل مفتوح يمضي علىٰ جبهات ثلاث : حركة ذاتية عميقة لتمكين الإنسان الفرد من المزيد من التحقّق بالإيمان ، وحركة جماعية أفقية لتمكين المجتمع المسلم من حماية نسيجه وتمتين حبكته ، وحركة صوب الخارج ، صوب العالم ، تحمل بعداً عقيدياً يتوسل بالسياسة أو القوة العسكرية حيناً ، وبالكلمة أو الفعل الحضاري حيناً آخر . ومن خلال هذا الجهد ذي المستويات الثلاثة ينداح لكي يحتضن مساحات أوسع من المجتمعات ويضيف إلىٰ كيانه عناصر جديدة فما يلبث أن يزداد قدرة علىٰ الفاعلية والعطاء .

إننا بمجرد إلقاء نظرة سريعة علىٰ حشد من المجتمعات الأخرىٰ ، الدينية أو الوضعية ، سنرىٰ بأم أعيننا تلك الملامح المتفردة التي تصبغ المجتمع الإسلامي وتميزه عن سائر المجتمعات في التاريخ . قد تكون هناك مجتمعات منفتحة كالمجتمعات النصرانية ، لكنها ما كانت تملك رؤيتها المتوحدة التي تعرف كيف تتعامل مع العالم كما فعلت مجتمعات الإسلام . وقد تكون هناك مجتمعات شديدة الفاعلية كالمجتمعات اليهودية إلا أنها ما كانت تملك انفتاحاً يجعلها تسعىٰ للتعامل مع الإنسان في العالم كلّه . ها هنا في تجربة المجتمع الإسلامي نلتقي بالانفتاح والفاعلية والتوحد ، ومن ثم تكون القدرة علىٰ

الامتداد والإنجاز دون أن يحدث ذلك أيما شرخ في القيم التي يقوم عليها هذا المجتمع إلا في حالات تكاد تكون استثناءات من القاعدة لا يقاس عليها .

ومرة أخرىٰ ، فإن الإسلام هو الذي يقود ويصنع ، فحركة البنيان الاجتماعي التي تتمخض عنه تحمل قدرتها الدائمة علىٰ التجدد والاتساع والإضافة والإغناء ، وعلىٰ العكس فإن السكون والانكماش والتراجع والسقوط كانت غالباً المصير الذي ينتظر المجتمعات التي كان الإسلام فيها يُعزل لسبب أو آخر عن ممارسة دوره الأصيل في التشكيل والقيادة .

وما دمنا هنا بصدد تحليل معطيات تاريخنا الإسلامي ، وليس عقيدتنا أو فكرنا الإسلامي ، فإن الممارسة المشهودة في الزمن والمكان هي الحكم الفصل فيما نحن بصدده : تفرّد المجتمع الإسلامي الأول ، مجتمع الرواد الذي صنعه الرسول ﷺ علىٰ كُل المستويات .

ورغم تبدل القيادات الإسلامية،رغم تخلّي بعض هذه القيادات عن الالتزام بدرجة أو آخرىٰ ، فإن المجتمعات الإسلامية واصلت التزامها علىٰ كافة المستويات : العبادات ، المعاملات ، القيم الخلقية وآداب السلوك ، وصولاً إلىٰ مطالب العقيدة الكبرىٰ : الحركة الجهادية لإسقاط الطاغوت من أجل أن تكون الكلمة أو الدين أو المنهج لله وحده .

ثمة خطأ (تاريخي) كثيراً ما مارسناه : إنه بمجرد ضلال قيادة ما عبر التاريخ الإسلامي ، وبخاصة في مراحله الأولىٰ ، بمجرد تخلّيها عن الالتزام وتسيُّبها وانفلاتها ، فإن المجتمع الذي تحكمه سيتسيّب وينفلت ويضل الطريق هو الآخر .

ولم يكن الأمر بهذه البساطة أو التصادي الزمني السريع .. أبداً .. ولشدّ ما كانت المجتمعات الإسلامية تواصل التزامها وتحققها دون أن يكون

هنالك ارتباط مباشر محتوم بين الحاكم والمحكوم ، بل قد تجد هذه المجتمعات نفسها في حالة ردّ فعل ، أو دفاع عن الذات إزاء حكامها الذين فقدوا الالتزام كنوع من الاستجابة لتحدٍّ واقع قد يدفع إلى مزيد من التحصن ضد عوامل التفكك والتسيبّ والدمار .

ومهما يكن من أمر فإن المجتمعات الإسلامية كانت تملك قدراتها الذاتية علىٰ حماية ذاتها العقائدية لفترات زمنية قد تطول أو تقصر ولكنها ما كانت ، بحالٍ ، بالسرعة الميكانيكية التي تتجاوب كأصداء الأجراس مع أي خطأٍ أو انشقاق أو تفلّت قد يحدث فوق ، في دوائر الحكم والقيادة والسلطان . فرغم الأخطاء التي شهدها عصر أموي أو عباسي أو أندلسي أو مملوكي أو عثماني .. إلى آخره على مستوى الحكم ، فإن المجتمعات الإسلامية ظلت تواصل مسيرتها الإسلامية باذلة جهداً مزدوجاً هذه المرة ، إذ كان عليها أن تحمي التزامها أولاً ، وأن تسعىٰ بهذه الصيغة أو تلك إلىٰ ردّ السلطان إلىٰ جادة الصواب .. إلى حكم القرآن .

فما استسلمت المجتمعات الإسلامية بهذه السهولة ، والمؤثرات الإسلامية تشكّلها وتؤثر فيها صباح مساء . إن علينا ها هنا أن نلحظ نوعين من القيادات قيادات فقدت التزامها ، بدرجة أو أخرىٰ ، لكنها لم تمارس عملاً مضاداً فتحجب حق الالتزام أو سبله عن المجتمع الذي تحكمه ، وهذا النموذج هو الذي يغطي معظم مساحات تاريخنا الإسلامي . وقيادات أخرىٰ أقل عدداً ، أبحرت بالاتجاه المضاد فاستخدمت سائر الوسائل لحجب حق الإلتزام وسدّ الطرق والمنافذ أمام المجتمعات الإسلامية - التي تحكمت فيها - من أن تمارس حقها في أن تحيا - علىٰ النطاق الإجتماعي علىٰ الأقل - الحياة الإسلامية التي يريدها الله ورسوله ..

وإذا كانت الضغوط المضادة في الحالة الثانية لم تستطع إلغاء الالتزام

الاجتماعي بالإسلام بلمسة سحرية بل إنها في بعض المساحات ولّدت ردود فعل شديدة زادت بعض الجماعات الإسلامية أصالة والتزاماً فكيف سنصدّق - إذن - تلك المقولة الخاطئة من أن المجتمعات الإسلامية عبر التاريخ، حيث ما كان الحاكم يلجأ - إلاّ نادراً - إلىٰ ممارسة ضغوطه المضادة، سوف تنفلت بقدرة قادر من التزاماتها الإسلامية وسوف تخرج بسرعة غير مبّررة إلىٰ طريق الضلال ؟

إننا قد نجد العكس من هذا تماماً، ممارسات تاريخية كانت تعبرّ عن رغبة المجتمعات الإسلامية بمزيد من الالتزام، إنها ما استسلمت بسهولة لتقاليد الحكام بل شقّت طريقها المستقل بمواجهتهم، بل إنها أعلنت ثورتها عليهم من أجل إعادتهم إلىٰ جادة الصواب، أو إرغامهم علىٰ تسليم مواقعهم لمن يسلك جادة الصواب[١] وهي كانت تعلم جيداً أنه مهما طال الزمن بقدرة المجتمع الإسلامي علىٰ الالتزام، فإن القيادة المنحرفة ستفكك يوماً بعد يوم عرىٰ هذا الالتزام عروة عروة، وسيجد المجتمع الإسلامي نفسه يوماً غير قادر، بهذه الدرجة أو تلك، علىٰ حماية التزامه بعد أن انهارت خطوط دفاعه الواحدة تلو الأخرىٰ.

إنه من الصعوبة بمكان تصوّر بقاء المجتمع المسلم بدون دولة تسعىٰ لحمايته، أمداً طويلاً، إذ أنه لابد وأن يتعرض لعوامل التحللّ التي سمّمت الأجواء الخارجية، ورغم طول فترة مقاومته إلا أن الجراثيم لابدّ وأن تنقل العدوىٰ إليه فيتجه صوب التحلل والدمار. ولذا كان هناك ارتباط متين في الرؤية الإسلامية بين الدولة والحضارة من جهة، وبين الإنسان والمجتمع

---

(١) يمكن اعتبار الكثير من الثورات وحركات المعارضة التي شهدتها العصور الإسلامية المتعاقبة، تأكيداً لهذا الاتجاه، وأن المرء ليلمح في معظم تلك الثورات والحركات شعاراً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض: العودة إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام.

من جهة أخرى ، ولن يتم التوحد والتماسك والتقدم إلاّ بوجود هذه الأقطاب الأربعة : إبتداءً من الإنسان صانع الحضارة ، فالمجتمع مشكل قيم الحضارة ومنفذها ، فالدولة حارسة الكيان الاجتماعي والحضاري ، فالحضارة نفسها التي لن تكسب تفردها وحيويتها ونموها إلا بتوفر الإنسان الفعال (المحسن) والمجتمع الحركي (المجاهد) والدولة القوية (الراشدة) .

(٢)

كان المجتمع الإسلامي عبر التاريخ يضمّ في تركيبه عناصر وفئات شتىٰ وكانت هذه العناصر والفئات تزداد عدداً واتساعاً بمرور الوقت وبامتداد الإسلام في الزمن والمكان ، بما أن هذا الدين كان يتحرك دائماً صوب العالم كله ، فإن المنتمين إليه أو المنضوين تحت لواء قياداته كانوا يتزايدون ويتغايرون باستمرار . ولقد قدر الإسلام علىٰ أن يمسك بالعصا من أوسطها فلا يجعل الميزان يميل أو يجور ، وكان يفتح صدره للعناصر والفئات كافة ، بما لم يشهد له التاريخ مثيلاً من قبل ومن بعد .

إن تحليل عناصر المجتمع الإسلامي وطبيعة ارتباطاتها بعضها ببعضٰ ، وعلاقاتها بالسلطة ، وموقفها من الإسلام ، ودورها في النسيج الاجتماعي ، تأخذ اتجاهات عدة ، ولكننا نستطيع بلمّ تفاصيلها وجزئياتها أن نضعها في إطارات محددة لكي نستطيع أن نمسك بالملامح الأساسية لما كان يدور داخل كل إطار . وهذه الإطارات هي :

أ ـ الطبقات الاجتماعية .

ب ـ العناصر غير العربية .

جـ ـ العناصر غير الإسلامية .

د ـ الرجل والمرأة .

أ ـ الطبقات الاجتماعية (أو التركيب الاجتماعي)

لم يكن بمقدور أي مجتمع عبر التاريخ أن يسوّي بين أفراده تسوية مطلقة من حيث موقعهم الاجتماعي ، وليس من حيث المعاملة وتكافؤ الفرص بطبيعة الحال ، وإذا حدث وأن تم هذا ، أو نودي به ، فإن الأمر سيخرج إلىٰ نطاق مظلمة جديدة تضيّع فيها الحقوق مرة أخرىٰ . إنه حتىٰ المجتمعات الشيوعية المعاصرة وجدت نفسها تذعن لمنطق السلّم الإجتماعي أو التغاير المحتوم في المواقع وبالتالي في الدخول والأرزاق . وليس هنا مجال الحديث عن شواهد هذا التوجّه في التجربة الشيوعية فهو أوضح من أن يؤتىٰ منه بمثال . ولكننا نتذكر الآية القرآنية التي تضع الأمر في نصابه الحق : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً** ﴾ [٢]

فها هنا يؤكد القرآن الكريم حقيقة التغاير المحتوم في المواقع الإجتماعية ويعتبرها ـ في الوقت نفسه ـ من ضرورات الحركة الإجتماعية صوب الأحسن والأرقىٰ . ولكن هذا لم يكن يعني أبداً ـ من الناحية المبدأية ـ السماح بتحول هذا التغاير الفعال إلىٰ أداة مضادة لتدمير المجتمع الإسلامي عن طريق تمركزه في طبقات متصارعة يكون التفاوت الشاسع في مواقعها سبباً في صراعها ذاك .

إن القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ تقفان ابتداء بمواجهة هذا المصير ، ولقد وقفنا طويلاً عند هذه المسألة في كتاب (مقال في العدل الإجتماعي) ويكفي أن نحيل القاريء عليه تجاوزاً للتكرار .

ولقد كان المجتمع الإسلامي علىٰ عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين -

---

(٢) سورة الزخرف (آية ٣٢) .

وبخاصة عهد الشيخين رضي الله عنهما ـ بمثابة الساحة التي نفذت فيها القيم الإسلامية تنفيذاً اجتماعياً لم يسمح بظهور صراع طبقي بالمعنىٰ المعروف ، لأنه لم يسمح لشروط التمركز الطبقي أن تفعل فعلها في تمزيق نسيج المجتمع وتحويله من التوحد إلىٰ التفكك والصراع . ولكن حدث في النصف الثاني من خلافة عثمان رضى الله عنه ، فما بعد ، ونتيجة لتراكم الثروة وتكدسها ، والسرعة الزمنية المذهلة في حركة الفتح التي قادت إلىٰ هذا التراكم الذي لم يحسب له حساب ، والذي أصبح ضبطه وتوزيعه يحتاج إلىٰ وقت كاف ، وخطط ومؤسسات جديدة ، أن بدأت عملية تمركز الثروة في جهة ، وتضاؤلها أو انعدامها في جهة أخرىٰ ، تسبب تحديات جديدة كان علىٰ القيادات الإسلامية أن تجابهها لكي تعيد الأمور إلىٰ نصابها . وعلىٰ خلاف ما قيل عن الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه فإن الرجل قد سعىٰ في السنين الأخيرة من حكمه لمجابهة المشكلة ، إلاّ أن الفتنة كانت أكبر بكثير ، وكانت عواملها المعقدة المتشابكة التي تخرج عن نطاق المسألة المادية الصرفة ، تندفع بهدير مخيف لكي تؤول ، بعد مقتل الخليفة ، إلىٰ مزيد من التعقيدات ما كان بمقدور عليّ نفسه كرم الله وجهه أن يوقفها ويتفرغ - من ثم ـ لإعادة الموازين الإسلامية من جديد .

ولكن مهما قيل عن التفاوت الإجتماعي في هذا العصر الإسلامي المبكر فإنه يعد ميسوراً بالمقارنة بتجارب المجتمعات الأخرىٰ السابقة واللاحقة والتي كان التفتت الإجتماعي ، والمظالم القاسية ، والتمركز الطبقي قد بلغ فيها حدوداً كانت تؤذن بدمار تلك المجتمعات وذهاب ريحها . بينما نجد المجتمع الإسلامي يزداد بمرور الوقت قدرة علىٰ الفعل التاريخي والإنجاز الحضاري والحضور في قلب العالم . فلو أن صراعاً حاداً كان يتآكله من الداخل ، كما يخيل للبعض ، لما كان بمقدوره أن يحقق عشر معشار ما حققه يوم ذاك .

ولابدّ من الإشارة هنا إلىٰ مسألة (الرق) كواحدة من التحديات الإجتماعية التي كان علىٰ القيادات الإسلامية أن تجابهها ، وإلاّ تحولت إلىٰ تمركز طبقي ما كان يأذن به الإسلام . ولكننا نعرف موقف النظرية الإسلامية من مسألة الرق ، وقد كتب في ذلك الكثير ، مما لا حاجة إلىٰ إعادته أو حتىٰ الإشارة إليه . ولكن علىٰ مستوىٰ التحققّ التاريخي فإننا نجد كيف سعىٰ الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون إلىٰ تشديد النكير علىٰ الظاهرة وتجفيف منابعها ، واعتبارها ظاهرة شاذة تتوجب معاينتها وملاحقتها باستمرار كي لا تتسع وتمتد . وكان (التحرير) هو العمل المطلوب ، وعلىٰ العكس فإن (الاستعباد) كان حالة عرضية موقوتة أفرزتها الظروف . ولم يلجأ الإسلام ـ بواقعيته ـ إلىٰ طرح نظرية معلقة في الفراغ ، ولكنه سعىٰ من خلال مقولات الواقع إلىٰ تضييق الخناق على الظاهرة ومحاولة إزالتها من الوجود . فلو أتيح للقيادة الراشدة أن تواصل الطريق لكان الحال غير الحال علىٰ وجه اليقين ، إذ أن التسيّب الذي شهدته بعض القيادات الإسلامية أتاح للظاهرة ـ ثانية ـ أن تستفحل وأن تزداد تشابكاً وتعقيداً وأن تصل مأساة النخاسة ـ وتجارة الرقيق ، وأن تشكل ـ بالفعل ـ استقطابا طبقياً قاد إلىٰ العديد من الحركات الإجتماعية التي سنشير إليها بعد قليل .

ومهما يكن من أمر فإن الانحراف الإجتماعي أخذ يطل برأسه منذ فترات مبكرة ، وأخذ يتصاعد بمرور الوقت ، وسنكون مخطئين لو حاولنا إغفال هذا الجانب الخطير من تاريخنا الإسلامي ، كما فعل البعض ، أو التقليل من شأنه ، كما أننا سنكون مخطئين ـ كذلك ـ لو حاولنا تضخيمه واعتباره القاعدة الأساسية التي تفسر كل معطيات التاريخ الإسلامي كما يفعل أتباع المدرسة المادية ، بل إننا سنكون مخطئين لو حاولنا أن نسحب

بعض المؤشرات التاريخية الإجتماعية للأمم والشعوب الأخرى وتعميمها علىٰ تاريخنا الاجتماعي أو محاولة إرغام هذا التاريخ علىٰ التلبّس بمعطياتها والمرور ـ قسراً ـ من قنواتها .

إن الموقف العلمي ، أو الموضوعي ، من المسألة يتوجب أن يأخذ طريقاً وسطاً فلا ينكر خطورة المسألة ، ولا يبالغ في اعتبارها الأساس المتفرد الذي يفسّر كل شيء .

إننا نجد أنفسنا ـ بمرور الوقت ـ بإزاء العديد من الحركات الاجتماعية التي ثارت علىٰ الظلم وطالبت بالعدل ، ونجد أنفسنا كذلك بإزاء العديد من المحاولات القيادية لتدارك الأمر والعودة بالتجربة الإجتماعية إلىٰ إطاراتها التي رسمها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتطبيقات خلفائه الراشدين مما لم يسمح بظهور مظالم كهذه أساساً .

وكلنا نذكر كيف بذل عمر بن عبد العزيز زهرة سني حكمه من أجل حل المشكلة الاجتماعية حلاً عادلاً يكفل إيجاد المجتمع المتوازن المتكافل كما أراد له الله ورسوله أن يكون .

لقد رأينا كيف أن الرجل بدأ انقلابه الاجتماعي من مركز الثقل الحقيقي : الخليفة نفسه والحزب الأموى الحاكم والجهاز الوظيفي ، من أجل كفّهم عن الأخذ ودفعهم إلىٰ التجرد والعطاء . ومضىٰ في الجهة الأخرىٰ ، وعلىٰ خط متوازٍ ، يقدم لجماهير أمته أوسع الخدمات والعطاءات والضمانات الاجتماعية ، تقليصاً للضرائب ، واتباعاً للأساليب العادلة في الجباية ، وتوسيعا عجيباً لفكرة الضمان الاجتماعي ، واعتماداً لكافة الصيغ والسياسات لتنفيذ هذه الفكرة علىٰ أوسع نطاق . كما رأينا كيف أنه نظم سياسات الموازنة المالية فلم تعان دولته طيلة سني حكمه عجزاً مالياً من جراء

الانفتاح المدهش علىٰ جماهير أمته ، فكان فتح باب التجارة الحرة ، والتأكيد علىٰ الزكاة ، واعتماد سياسة زراعية سليمة ، والحد من استنزاف أموال الدولة في الصراعات الداخلية ووقف أعمال الابتزاز والاستغلال التي كان الموظفون يمارسونها في مختلف العهود ، كان لهذه الإجراءات وغيرها الدور الفعال في تحقيق الموازنة المالية وتمكين الدولة من المضي في تنفيذ برامجها الاجتماعية علىٰ أوسع نطاق (٣) .

وكلنا نذكر ـ كذلك كيف أولىٰ نور الدين محمود (٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ) هو الآخر اهتماماً بالغاً للمسألة الاجتماعية وأدرك أن أي تغيير أساسي في واقع الحياة البشرية نحو الأحسن والأكمل لن يستكمل أبعاده إلا من خلال إعادة تشكيل الأرضية الاجتماعية بالحق والعدل بحيث لا يبقى هنالك ظالم أو مظلوم . فمن خلال هذه الثغرة الخطيرة ، من خلال هذا التقابل المدمر في الحياة الاجتماعية تضيع طاقات وقدرات كان يمكن أن تتفتح وتعطي لولا حصار الجوع والمغبة ، بينما في الجهة الأخرىٰ يتمركز ـ بسبب تكدس غير طبيعي في الثروة ـ العفن والتفكك والترف والفساد .

ولقد كان نور الدين محمود يشكل موقفه الفعال في المسألة الاجتماعية من خلال الرؤية الإسلامية الموضوعية العادلة التي صاغها كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ونفذتها سياسات الخلفاء الراشدين والقيادات الإسلامية الملتزمة عبر التاريخ .

ويبدو واضحاً من خلال تتبع المادة التاريخية في هذا المجال ، كيف أن نور الدين كان يرى في الدولة مؤسسة لحماية (حقوق)جماهير المواطنين وتقديم أوسع الخدمات لهم ، وهو التصوّر الذي يرفض بالكلّية صيغ الأخذ

---

(٣) انظر بالتفصيل كتاب (ملامح الانقلاب) للمؤلف ، فصل (الاقتصاد والمال) .

والاستلاب والابتزاز والتضييع التي مارستها الكثير من الحكومات عبر التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي ، وكان هذا الابتزاز يأخذ يوم ذاك صيغ التوسع الضرائبي والامتناع - في المقابل - عن تقديم الخدمات .

ومن أجل تجاوز هذا المنطق الخاطيء سعىٰ نور الدين إلىٰ التحرك صوب الطرف المقابل تماماً ، فعمل علىٰ تقليص الضرائب إلىٰ الحد الأدنىٰ المتاح ، ونشط من أجل تقديم أوسع الخدمات لجماهير أمته . وكان يحوط هذا التحرك - الذي أخذ يتصاعد بمرور الزمن - برقابة صارمة علىٰ أموال الدولة العامة ويقطع اليد التي تسعىٰ إلىٰ أن تمتد إليها بسوء ، كما يحوطه بانفتاح عجيب علىٰ القطاعات الفقيرة المسحوقة من أبناء الأمة ، من أجل تفهم واقعها المرير ودفعها إلىٰ مستوى الكفاية .. يستندن ذلك كله علىٰ قدر من الموارد كان - ولا ريب - قديراً علىٰ تغطية متطلبات (العطاء) الواسعة التي نفذها نور الدين محمود (٤) .

وتكون نتيجة المحاولتين اللتين نفذهما عمر ونور الدين ظهور مجتمع العدل والتضامن والتكافل والمواساة في الحاجات الأساسية .. إن المسألة ليست مسألة دولة تعطي وتضمن وتخدم فحسب ، ولكنه (المجتمع) الذي تسعىٰ هذه الدولة إلىٰ تشكيله ، المجتمع الذي يمحّي فيه الاستغلال وتضيق الفوارق ويشترك الجميع بالحق والعدل ، فيما يمكنهم من إشباع حاجاتهم الأساسية ، لكي يقدر الجميع علىٰ التحرك إلىٰ ما وراء ذلك . الآفاق الواسعة الرحبة التي جاء الإسلام لكي يقود الناس إليها .

ومن وراء هذه المحاولات وغيرها مما لم نشر إليه وقع الكثير من

---

(٤) انظر بالتفصيل كتاب (نور الدين محمود : الرجل والتجربة) للمؤلف ، فصل (في ميدان المال والمجتمع) .

المظالم ، ووزعت الثروة توزيعاً سيئاً ، واعتمدت سياسات مالية واقتصادية جائرة ، وتكونت بقع طبقية في نسيج المجتمع الإسلامي ، فازدادت فئات غنىً وثراءً وترفاً وعانت فئات أخرى مسغبة وجوعاً وفقراً .

إن ثَوْرَتَيْ الزط والزنج في جنوب العراق لتقدمان مثلاً علىٰ ما كان يجري يومها : يكدح الفلاح نهاره كله في الوحل والطين لكي يستلم أجره من مالك الأرض درهماً أو رغيفاً من الخبز . ولقد انفجرت المظلمة التي لم يأذن بها الله ورسوله ثورتين عاتيتين هزّتا أركان الخلافة العباسية لعقود طويلة من الزمن ، وجاوزت في ردود أفعالها كلّ حدّ وتحوّلت أحياناً إلىٰ الفوضىٰ والقتل والانتقام .

والذي كان يمارس القتل - في الحقيقة - علىٰ أيدي الثائرين من الزط والزنج هم ملاك الأراضي الذين أجاعوهم فدفعوهم إلىٰ الثورة . ومع ذلك يأتي مؤرخنا القديم وبعض مؤرخينا المحدثين لكي يعلن إدانته لهذه الثورات وقد يخرج بها إلىٰ الكفر رغم أن بعضها طرح شعارات إسلامية . كما يتكيء مؤرخون آخرون علىٰ ثورات كهذه لكي يعلنوا إدانتهم ليس للقيادات الخاطئة ولكن للإسلام نفسه ، وهي خطيئة تبلغ حدود الجهل بحقائق الأمور فلا تستحق نقاشاً .

وقد حدث وأن استغلت هذه الحركات الاجتماعية فانتمت إليها تيارات وعروق كانت تريد الفتك بكل ما هو عربي وتدمير كل ما هو إسلامي بسبب من نزعتها الشعوبية أو المذهبية . وحدث - كذلك - أن قفز لقيادتها رجال تربوا في أكناف هذه الفئة أو تلك من الفئات المعادية للإسلام نفسه ، ولحملته ، ورأو في المظالم الاجتماعية خير ثغرة بنفذون من خلالها لتحقيق التخريب المقصود .

ولكن هذا كله ما كان يتوجب أن يدفع المؤرخ المسلم ، قديماً أو

حديثاً ، إلىٰ اغفال شأن حركات خطيرة كهذه ، أو إدانتها بالكفر والمروق ، بل كان يتوجب أن يكون حذراً في التفريق بين جسد هذه الحركات وبين قياداتها أو عقولها التي سعت إلىٰ توظيفها لتحقيق هذا الهدف أو ذاك ، وكان يتوجب ـ كذلك ـ رؤية أكثر علمية لواقع الظلم الاجتماعي القاسي الذي كان يحتّم ثورات كهذه تضاربت أمواجها وغطاها الزبد وسيقت إلىٰ غير وجهاتها الأصيله ، لكنها كان لابد أن تحدث ، وكانت في مساحات من نسيجها أقرب إلىٰ روح الإسلام الثائر علىٰ الظلم ، من القيادات القابعة في بغداد أو غيرها من عواصم الإسلام تسترخي لأبيات من المديح الكاذب فتأمر لصاحبها بألف دينار أو ألفين ، بينما هنالك في المستنقعات يموت المئات مسغبة وجوعاً ، ويكدح الألوف من أجل أن يسدّوا رمقهم فلا يقدرون .

إن أتباع المدرسة المادية يسعون اليوم إلىٰ تبني حركات اجتماعية كهذه ويضعونها علىٰ خط التقدم في مواجهة القوىٰ الرجعية في تاريخنا الإسلامي ، وسنكون مخطئين مثلهم لو حاولنا دفاعاً عن مراكز القيادة المتخمة في بغداد واعتبرناها تمثل دفاع الإسلام عن ذاته بمواجهة قوىٰ التخريب .

إن الموقف العلمي ـ مرة أخرىٰ ـ هو ذلك الذي يبحث عن الأسباب ، ويعاين النسيج جيداً ، ويتوغل في المكونات ، ويقارن بين سلوكية القيادة والقواعد ثم يصدر حكمه ، وسيجد الأمر حينذاك ليس ما يقوله الماديون ولا المؤرخون التقليديون .

وما يقال عن هذه الثورات يمكن أن يقال عن تلك التنظيمات الاجتماعية : الحرفية والنقابية ، التي أخذت تتزايد وتنتشر منذ القرن الهجري الثاني وعبر القرون التالية ، فقد أدانها بعض مؤرخينا القدماء ،

وتحاشي ذكرها بعض مؤرخينا المحدثين ، وتبناها أتباع المدرسة المادية في التاريخ ، فصبّوا عليها ، ومن خلالها ، تحليلات ما أنزل الله أو العلم الجاد بها من سلطان ، وحاولوا أن يضعوها في قوالب الصراع الطبقي وحتميات التاريخ الديالكتيكية .

ولم تكن تلك الحركات كافرة يوماً ، كما أنها لم تكن إرهاصاً طبقياً ، لقد سعىٰ بعضها إلىٰ تنظيم نشاطه الحرفي والدفاع عن حقوقه بمواجهة المستغلين وسعىٰ بعضها الآخر إلىٰ تنظيم نشاطه الرياضي أو الفروسيّ أو العسكري لأداء هذه المهمة أو تلك ، بل إن كثيراً من هذه الحركات انخرطت في تيار النشاط الصوفي الذي يحمل وجهاً اجتماعياً لكن نبضه كان روحياً صرفاً .

ولنتذكر كيف أن العديد من هذه الحركات استمد تقاليده من تقاليد الإسلام ونمت قيمه من قيم هذا الدين ، وصاغ شعاراته من معطيات إسلامية صرفة فنشاط هذه الحركات لم يكن اقتصادياً صرفاً ، وتوجهها لم يكن طبقياً صرفاً ، إنما امتد واتسع لكي يعلو علىٰ الضرورات الصرفة إلىٰ أهدافٍ أشمل وأوسع تليق بمكانة الإنسان في العالم .

وإذا حدث وأن مارس بعض تلك التنظيمات ، كحركة الشطّار والعيّارين في بغداد ، أعمالاً من الفوضى والتخريب ، ومارس بعضها الآخر ـ كالعديد من الأجنحة التنظيمية للحركة الإسماعيلية ـ هدماً وتخريباً للقيم الإسلامية ، فإن هذا لا يبيح وضع تلك الحركات والتنظيمات جميعاً في دائرة التوجس والشك والاتهام ، بل علىٰ العكس أن بعض هذه الحركات قدم للإسلام نفسه خدمات أوسع بكثير مما كانت تقدمه بعض القيادات الرسمية والجيوش المدججة بالسلاح في هذه الدولة أو تلك من دول الإسلام .

ب - الإطار الثاني : العناصر غير العربية

دعا الإسلام إلىٰ المساواة التامة بين أتباعه أياً كان العرق الذي ينتمون إليه والفئة التي يتحدّرون منها ، وطرح القرآن الكريم شعاره الحاسم ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [٥] ، وقال الرسول عليه السلام قولته المعروفة (لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلاّ بالتقوىٰ) .

وكان عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم بمثابة التحقّق التاريخي لهذه المساواة التامة بين العرب وغير العرب في ظلال دينٍ واحد يساوي بين الجميع . بل إن غير العرب كانوا ـ بسبب قلّتهم وتميّزهم ـ يحتلون مكانة خاصة في قلوب إخوانهم من المسلمين العرب ، وكلنا يعرف المكانة المتفردة التي كان يحتلها رجال من أمثال سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم .

ولما انساح العرب في حركة الفتوحات إلىٰ البلاد المجاورة وانضّم إلىٰ الدين الجديد جماعات شتىٰ من غير العرب ، كانوا يجدون في دولة الإسلام صدراً رحباً واستعداداً فذاً لمساواتهم بإخوانهم العرب ، وما كنا نشهده يومها من تمييز في بعض المسائل المالية والاجتماعية لم يكن ـ بحالٍ ـ تمييزاً بين العرب وغير العرب من المسلمين ، وإنما هو التمييز المبّرر بين طبقات المنتمين للإسلام وفق تسلسل زمني كان يعطي الأفضلية لأولئك الذين أسلموا مبكرين يوم كان الانتماء إلىٰ الدين الجديد عذاباً وملاحقة واضطهاداً وتنازلاً عن المصالح القريبة وفقداناً لضمانات الأمن والاطمئنان .

---

(٥) سورة الحجرات (آية ١٣) .

وعلى أية حال فإننا يجب ألاّ ننسىٰ أن الحركة الإسلامية قامت في الأساس علىٰ العرب سواء في عهد الدعوة الإسلامية أم في حركة الفتوحات الكبرىٰ ، وأن القرآن الكريم تنّزل بالعربية علىٰ رسول عربي كريم ، ويصعب - إذن - ألاّ يجد العرب المسلمون أنفسهم في دائرة التميز التي تقوم علىٰ كونهم المحور الذي دارت حوله حركة هذا الدين يوم بدئها وصيرورتها ، لا لكونهم عرباً ينتمون لعرق معين تتميز دماؤه بصفات خاصة ، ولكن لأنهم حملة الإسلام الأوائل ، والمتحدثون بلغة القرآن الكريم ، وأهل رسول الله ﷺ وعشيرته .

إن القرآن الكريم نفسه يؤكد في أكثر من مكان هذه المقولة : ﴿ **نزل به الروح الأمين علىٰ قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين** ﴾ [٦] ﴿ **إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ [٧] ﴿ **وكذلك أنزلناه حكماً عربياً** ﴾ [٨] ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد** ﴾ [٩] ﴿ **إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ [١٠] ...

فإذا ما تجاوزنا مواقع التشنج الذي تصنعه الأفعال الخاطئة وردودها ويقود إليه صراع المصالح القريبة والأحقاد الذاتية المحدودة ، فإننا سنجد المسلمين من غير العرب يذكرون - علىٰ مدار التاريخ - هذه المكانة المتميزة التي يتوجب أن يمنحها العرب في المجتمعات الإسلامية ، وإننا نجد حتى اليوم هذا التوجه الطبيعي ينبثق بصدق وعفوية في قلوب وعقول المسلمين من

---

(٦) سورة الشعراء (آية ٩٥) .

(٧) سورة يوسف (آية ٢) .

(٨) سورة الرعد (آية ٣٧) .

(٩) سورة طه (آية ١١٣) .

(١٠) سورة الزخرف (آية ٣) .

غير العرب في مشارق الأرض ومغاربها ، ونستطيع أن نقيس علىٰ هذا الواقع المشهود ما كان يحدث عبر عصور التاريخ الإسلامي جميعاً .

ولكن هذا التميز العربي في دائرة المجتمع الإسلامي الشامل يتوجب ألاّ يجاوز حدوده المعقولة باتجاه نوع من الاستعلاء العرقي غير المبرّر علمياً من جهة ، وباتجاه تفريط بالمساواة الاجتماعية التي دعا إليها الإسلام ونفذها الرسول ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم من جهة أخرى .

إلاّ أن الذي حدث في العصور التالية هو هذا التجاوز الخاطيء في الاتجاهين علىٰ اختلافٍ في الدرجات بين زمن وآخر ، وقيادة وأخرىٰ .

فبدءً من العصر الأموي نلتقي بنوع من التمييز الذي أخذ يتصاعد كمّاً ونوعاً بين ما هو عربي وغير عربي ، وصارت فئة (الموالي) ، وهم المنتمون للإسلام من غير العرب ، تحتل مركزاً تالياً في المكانة الأدبية والمعاملة الاجتماعية علىٰ السواء ، ونظر إلىٰ العرب علىٰ أنهم أهل الصدارة السياسية وأن عليهم أن يتربعوا المناصب العليا ويظلون هناك في القمة ، أما الموالي فهم في الدرجة الأدنىٰ في السلّم الاجتماعي ، وأن عليهم أن يمارسوا الحرف الإعتيادية التي كان العربي يأنف لعقود طويلة من الزمن من ممارستها ، وينظر إليها نظرة تتميز بشيء من الاحتقار .

وكانت السياسات المالية بمثابة المؤشر المنظور والحصيلة النهائية لطبيعة هذا الجنوح في الموقف إزاء المسلمين من غير العرب ، إنهم - باختصار - لم يحظوا علىٰ قدم المساواة بالمكاسب المالية التي حققتها دول الإسلام ، وبالمقابل فقد عوملوا وفق سياسات مالية خاطئة كانت الدافع في كثير من الأحيان إلىٰ قيام ثورات لعب الموالي فيها دوراً كبيراً .

« ولقد لاحظت الأحزاب السياسية وجود نوع من الشكوىٰ لدى الموالي

فتبنت ذلك وجذبتهم إليها ، جنباً إلىٰ جنب مع العرب ، ويمكننا فحص ذلك في برامج الثورات الخطيرة في الشرق والغرب . ففي الغرب قاد الخوارج ثورات البربر وكانت شكوىٰ هؤلاء من معاملة الولاة الأمويين وعدم مساواتهم في صفوف المقاتلة ، وهي مشكلة نلاحظها في خراسان .. وتشير مصادرنا إلىٰ سوء تصرف من العمال والجباة ، وخاصة الدهاقين ، أحياناً في أساليب الجباية ، وهو سلوك ناشيء عن جشعهم .. وقد سبق وأشرنا إلىٰ تدابير الحجاج حتىٰ جاء عمر ليمنع أخذ الجزية من المسلمين . ولدينا ما فعله أمير خراسان في (١١٠ هـ) حين فرض الجزية علىٰ المسلمين الجدد في بلاد الصغد من منطقة ما وراء النهر ، بعد أن أعلن إعفاء من يسلم منهم ، فأدىٰ ذلك إلىٰ ثورة عارمة ، ثم استمر الإضطراب حتىٰ جاء نصر بن سيار (١٢١ هـ) ووضع حداً للتلاعب في خراسان ... وإذا نظرنا إلىٰ بعض ما ورد في برامج الثورات والأحزاب في الفترة الأموية المتأخرة نراها تلقي ضوءاً علىٰ هذه المشاكل فزيد بن علي ثار في الكوفة (١٢٢ هـ) ، وكانت بيعته علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ، والدفاع عن الضعفاء ، ورد العطاء إلىٰ من سلب منهم ، وتوزيع الفيء بعدل بين مستحقيه .. ويزيد الثالث خرج علىٰ الوليد الثاني (١٢٦ هـ) وهو يؤكد علىٰ العدل ، وعلىٰ عدم إرهاق الفلاحين .. والحارث بن سريج دعا في خرسان (بعد ١١٦ هـ) إلىٰ السير علىٰ الكتاب والسنة ، ورفع الجزية على المسلمين ، والمساواة في العطاء في الجيش بين العرب والموالي »[١١] .

ولكن يتوجب ألا نترك إدانة الموقف الأموي إزاء غير العرب تمضي علىٰ عواهنها ، فإن الأمويين مارسوا التميز إزاء العرب أنفسهم فمالوا إلىٰ كتلٍ

---

(١١) د . عبد العزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٤٣ ـ ٤٦ (بيروت - ١٩٦٢) .

قبلية واضطهدوا أخرىٰ ، وكان العصر الأموي بمثابة تصادٍ محزن للصراعات القبلية التي شطرت القيادات الأموية شطرين وآلت في نهاية الأمر إلىٰ تفككها ودمارها .

وقد حاول عدد من الخلفاء والولاة الأمويين ـ بحق ـ أن يوقفوا هذا التيار المدمّر في جسد الدولة الأموية باتجاهيه : العربي وغير العربي ، وكانت محاولة عمر بن عبد العزيز تقف ولا ريب في القمة من تلك المحاولات (١٢) .

لكن الثورة المضادة التي نفذها يزيد بن عبد الملك ، الذي جاء بعده (١٠١ ـ ١٠٥ هـ) آلت إلىٰ التفريط بالمكاسب الاجتماعية الكبيرة التي حققها عمر ، وكان يمكن أن تلعب دورها الخطير في وقف مأساة الإنهيار وإعادة التوحّد المرتجىٰ إلىٰ النسيج الاجتماعي الممزق حتىٰ آخر خيط فيه (١٣) .

هذا إلىٰ أن المسلمين من غير العرب أي الموالي لم يكونوا سواء في درجة انتمائهم للإسلام ، وجديته ، وعطائه ، فإن بعض فئاتهم كانت تعاني قلقاً وتأرجحاً في انتمائها للدين الجديد ، وكانت ـ لهذا السبب ـ سريعة الاستجابة لأية دعوة مضادة قد لا تكون موجهة ضد القيادة العربية التي مارست إزاءها هذا الخطأ الاجتماعي أو ذاك ، ولكن ضد الإسلام نفسه في بعض الأحيان ، بل إن بعضها كان علىٰ استعداد للعودة إلىٰ أصوله الوثنيه أو الدينية المحرفة إذا ما اقتضىٰ الأمر . وكان موقف الأمويين إزاءها محاولة جادة لوقف التفلّت في كيان مجتمع إسلامي يتوجب أن يحرص علىٰ

---

(١٢) انظر كتاب (ملامح الانقلاب) للمؤلف فصل (الدعوة والحرب والسياسة)

(١٣) انظر كتاب (في التاريخ الإسلامي : فصول في المنهج والتحليل) للمؤلف فصل (دراسة مقارنة في سياسات يزيد بن عبد الملك) .

إسلاميته ، ومن ثم فإن وضع هذا الموقف في ميزان واحد مع سائر المواقف التي كان الأمويون يمارسون من خلالها ظلماً وتفرقة اجتماعية بين العرب وغيرهم ، ليس من الحق في شيء .

إن المبالغة في إدانة السياسات الاجتماعية الأموية ، هي كمحاولة تبريرها أو إنكارها ، خطأ عقيدي وتاريخي يجب ألا ينساق إليه مؤرخ جاد .

وعلىٰ أية حال فإن موازين التركيب الإجتماعي لعالم الإسلام قد أخذت تتغير بمرور الوقت ، وبدخول أقوام وشعوب وجماعات جديدة من غير العرب إلىٰ الإسلام ، وإسهامها الفعال في حركة التاريخ الإسلامي علىٰ كافة المستويات .

وحينما استلم العباسيون زمام السلطة في المشرق ، والأمويون في المغرب ، كانت أذرع وعقول أخرى غير عربية قد لعبت دورها في إنجاح القيادتين وإيصالهما إلى مراكز الحكم والسلطان ، الأمر الذي حتم على القيادتين الجديدتين أن تفسحا مكاناً واسعاً لهذه العناصر الشابة الجديدة وأن تغير في طبيعة موازين التعامل الإجتماعي ، تلك التي سادت مساحات واسعة من العصر الأموي السابق .

إن الفرس والخراسانيين في المشرق ، والبربر في المغرب ، رغم كونهم في نهاية الأمر من الموالي ، إلا أنهم استناداً إلىٰ الدور التاريخي الذي لعبوه وإلىٰ المساحة البشرية التي احتلوها علىٰ خارطة الكيانات السياسية الجديدة ، عوملوا بكل تأكيد غير المعاملة التي لقيها آباؤهم وأجدادهم ، أو موالي الأقوام الأخرىٰ التي ارتضت البقاء في الخط الثاني عبر العصر الأموي السابق .

ومن بعد الفرس والخراسانيين في المشرق جاء دور الأتراك والديالمة

والسلاجقة والغزنويين والغوريين والهنود والمغول والعثمانيين .. ومن بعد البربر في المغرب جاء دور المولدين الأندلسيين والأفارقة والمماليك .

وبمرور الوقت أخذت تختفي معضلة الموالي ، أو المسلمين من غير العرب ، ولم تعد هناك أيما فرصة تاريخية لاستعادة التجربة الإجتماعية التي شهدها العصر الأموي . ورغم أن العباسيين سعوا أكثر من مرة إلىٰ تقليم أظافر اتباعهم من غير العرب ، بل قطع رؤسهم وتحجيم دورهم لكي لا يتضخم علىٰ حساب العرب ، فإن ما كان يدفع العباسيين إلىٰ هذا الموقف إنما هو الدفاع عن مركزهم العائلي بالدرجة الأولىٰ ، ومجابهة حركات اجتماعية جديدة أخذت تطل برأسها ، من خلال الدعوة إلىٰ المساواة ، ولكنها كانت تخفي وراءها محاولات مضادة تستهدف العرب والإسلام معاً ، فيما عرف بالحركات الشعوبية .

لقد اختفت معضلة الصراع بين العرب والموالي لكي تحلّ محلها صراعات اجتماعية وفق أنماطٍ أخرىٰ ، كان أبرزها ولا ريب تلك المحاولات الشعوبية التي كانت تتدرج من الحالات البسيطة المكشوفة التي قد تجد تبريرها في هذا النقطة أو تلك ، إلىٰ الحالات المركبة الصعبة التي كانت تسعىٰ إلىٰ زعزعة أسس المجتمع الإسلامي بعامة ، وتدمير كيانه وتمزيق نسيجه لتحقيق توجهات عرقية ذات جذور وثنية أو دينية مضادة ، ليس للعرب فحسب ولكن لعقيدة الإسلام نفسه « لقد بقيت آراء مزدك تنتشر خفية بين سكان أذربيجان والبلاد المجاورة لها وتستميل إليها العناصر الغير راضية عن حالتها الاجتماعية كبعض طبقات الفرس والمتطرفين من الباطنية الذين كانوا أشد الناس بغضاً وكراهة للإسلام والدولة العباسية ، وأسهلهم انقياداً لكل حركة

كانوا يأملون منها شراً للدولة المذكورة »(١٤) .

وقد ذكر المقدسي أنه زار أذربيجان وما يجاورها من البلاد فرأى بعينيه أن ليس في بلادهم مساجد وأنهم لا يقيمون أحكام الإسلام وقال أبو منصور البغدادي أن البابكية قد بنوا في جبلهم مساجد للمسلمين يؤذن فيها لهم وهم يعلمون أولادهم القرآن الكريم لكنهم لا يصلون في السّر ولا يصومون في شهر رمضان ولا يرون جهاد الكفرة(١٥) .

وقد رأى الإسماعيليون ، من أتباع عبد الله بن ميمون القداح ، « بعد درس شؤون الدولة العباسية درساً وافياً ، أنه لابد للقضاء عليها وعلى نظامها الاجتماعي من بث الدعوة الجديدة بين جميع الأمم والطبقات والأديان المؤلفة منها دولة المنصور وقتئذٍ ، كما لابد من جمع كلمة جميع المستائين من حكم خلفاء بغداد وإثارة عواطف البغض فيهم عليهم ، ثم دك تلك الأسس التي كانت قائمة عليها الدولة المذكورة وأهمها الدين والأدب والعاطفة القومية أو مما كان يقوم وقتئذ مقامها »(١٦) . ويواصل بندلي جوزي « نحن لا ننكر أن الإسماعيلية لم تنبذ في الظواهر الشرائع المنزلة عامة والقرآن خاصة ، وذلك لأنهم كانوا يرون فيها فائدة لطبقات الشعب الدنيا ، طبقات « العميان والحمير » كما كانت الإسماعيلية تسميها ، أما الطبقات العالية التي (فتح الله بصائرها وابصارها) فأدركت الحقيقة ، فهي في نظر الإسماعيلية وحسب اعتقادهم ، في غنىً عن هذه الشرائع وشعائرها الخارجية . مما ينتج عنه أن زعماء الإسماعيلية كانوا يكفرون

---

(١٤) بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ٩٣ ـ ٩٤ (دار الروائع ، بيروت)

(١٥) نفسه ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(١٦) نفسه ص ١١٩ .

بالأديان الموحاة وعقائدها الأصلية ، وهو ما ذكره كتبة المسلمين مراراً ، وما لا يمكن أن ينكره أحدٌ » (١٧) .

ويتساءل بندلي جوزي الذي يتبنىٰ بحماس كافة الحركات الاجتماعية ذات التوجه الشعوبي ، والذي لا يخفي إعجابه بالشاعر أبي العلاء المعري ويسميه « إمام الناقمين علىٰ الظالمين وزعيم المفكرين الأحرار » ، يتساءل « هل كان في وسعه ، وغيره ، أن ينشروا أفكارهم الهدامة علانية ويدعوا الناس إلىٰ الكفر بالدين والخروج علىٰ أهل السلطة الظالمين الفاسقين لو لم تمهد الإسماعيلية أمامهم الطريق وتعوّد الناس لإصغاء إلىٰ مثل هذه الأقوال والإقبال عليها ؟ » (١٨) هل ثمة من داعٍ لا يراد المزيد من الشواهد ؟ !

ويبقىٰ المجتمع الإسلامي عبر التاريخ واحداً من أشد المجتمعات البشرية دايناميه وانفتاحاً ، إنه مجتمع يرفض الطبقية المقفلة ، ويستهين بالحدود الفاصلة بين الفئات الاجتماعية ، مجتمع تكافأت فيه الفرص فيما لم يشهده مجتمع آخر في القديم أو الحديث ، فإن الذين كانوا يتحركون عند أسفل السلم الاجتماعي كانوا يجدون فرصتهم دوماً للصعود إلىٰ القمة ، وبالعكس ، فإن الكثيرين ممن تمتعوا بالقيادة والسلطان واستاثروا بهما ردحاً من الزمن وجدوا أنفسهم ينحدرون إلىٰ القاع ..

إن المقولة القرآنية تبدو أكثر ما تبدو عبر الصيرورة الاجتماعية لتاريخنا الإسلامي بالذات (وتلك الأيام نداولها بين الناس) (١٩) .

فها هنا ، في دائرة تاريخنا الإسلامي نجد ـ علىٰ سبيل المثال لا الحصر ـ

---

(١٧) نفسه ص ١٣٨ .

(١٨) نفسه ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

(١٩) سورة آل عمران (آية : ١٤٠) وانظر عن تحليل هذه المقولة كتاب التفسير الإسلامي للتاريخ ، للمؤلف ، ص ٢٥٥ ـ ٢٦٤ .

كيف يزيح العباسيون بني أمية ، وكيف يحل السلاجقة محل الديالمة ، وكيف يأتي الصغارون بعد الطاهريين ، والسامانيون بعد الصغارين ، والغزنويون بعد السامانيين ، والغوريون بعد الغرنويين ، والخورزميون بعد الغوريين ، والتتر بعد الخوارزميين .. وكيف يزيح الإخشيديون الطولونيين ، والفاطميون الأخشديين ، والأيوبيون الفاطميين ، والمماليك الأيوبيين ، والعثمانيون المماليك .. وكيف يعقب الأمويين في الأندلس والمغرب قيادات شتىٰ من بني جهور وبني عباد والمرابطين والموحدين وبني الأحمر والحفصيين والمرينيين .. وفي الشام والجزيرة بتعاقب الحمدانيون والمرداسيون والعقيليون والأتابكة والأيوبيون والمماليك والتتر والتركمان والعثمانيون ..

إنها حركة منفتحة ، وهذه القيادات التي كان يرث بعضها بعضاً ، لم تكن عربية جميعاً ، كما أنها لم تكن فارسية أو تركية أو بربرية أو هندية جميعاً .. كانت الأيام تتقلب ، وكانت تتقلب معها الأقوام والشعوب والجماعات وكان بمقدور أية جماعة قديرة علىٰ الفعل والإنجاز أن تصل إلى مركز القيادة .. أن تصبح في القمة وأن تقود حركة التاريخ والمجتمع الإسلامي ، أيا كان العرق الذي تنتمي إليه والأصول التي دفعتها إلىٰ الوجود ، فإن جواز سفرها الوحيد الذي يسمح لها بالمرور ، والصعود .. كان أنتاؤها إلىٰ الإسلام وحده .

ومن عجب أن يشهد مجتمع الإسلام ما لم يشهده أي مجتمع آخر : إنه حتى العبيد والمماليك أتيح لهم أن يبلغوا مراكز القيادات العليا وأن ينشئوا دولاً . وإنها - بحق - لظاهرة متفردة في تاريخنا الاجتماعي تدعو إلىٰ الإعجاب وتردّ بمنطق الواقع التاريخي نفسه على كل الذين سعوا إلىٰ تشويه حقائق هذا التاريخ وجعل المجتمع الإسلامي يتشكل من جديد في

رحم غير رحمه الحقيقي فيخرج إلىٰ الدنيا هجيناً مشوهاً كما يريد له مفسرو التاريخ الماديين أن يكون ، من أجل أن يقصر علىٰ أن يصبح شاهد زور علىٰ مقولات نظرية مادية قد تصدق أحياناً وقد تكذب في معظم الأحيان !!

* * *

حـ ـ الإطار الثالث : العناصر غير الإسلامية

قـدم عصر الرسـالـة إزاء أهـل الـذمـة يهـوداً ونصـارىٰ مـوقفـاً عقيـديـاً وتاريخياً رسمت من خلالـه (تقـاليـد) العلاقـة بين المسلمين وغير المسلمين ، ووضعت أصولها ونظمت صيغهـا . وعنـدمـا مضت حركـة التـاريخ صوب العصور التالية مضت معها هـذه التقـاليـد والأصول والصيغ تعمل عملها في مجرىٰ العلاقات الاجتماعية ، ومـا حـدث بين الحين والحين من خروج عليها فإنه لم يعْدُ أن يكون شذوذاً علىٰ قاعدة ازدادت تأكيداً بمرور الأيام .

مـا الـذي أراد رسول الله ﷺ أن يقـولـه وينفّـذه إزاء غير المسلمين من أهل الكتاب ؟

بمقـدور القـارىء أن يرجع إلىٰ كتـاب (دراسـة في السيرة) للعثور علىٰ الجـواب الشـامـل بجزئيـاتـه وتفـاصيلـه [٢٠] ، ولكننـا نـوّد أن نشير ـ مجرد إشارة ـ إلىٰ العهد الذي كتبه الرسول ﷺ في أعقـاب غزوة تبوك عـام (٩ هـ) لنصارىٰ نجران ، ذلك العهـد الـذي يمثل قمـة من قمم العـدل والسماحـة والحرية ، والذي لم يفرض عليهم فيه سوىٰ جزيـة عينيـة متواضعـة ، وقـد جاء فيه « .. ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمـة محمـد النبي رسول الله علىٰ أنفسهم وملّتهم وأرضهم وأمـوالهم وغـائبهم وشـاهـدهم وبيعهم وصلـواتهم ، لا يغيروا أسقفاً عن أسقفيته ولا راهباً عن رهبـانيتـه ولا واقفـاً عن وقفـانيتـه وكل مـا تحت أيـديهم من قليـل أو كثير .. ومن سـأل منهم حقـاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين .. ولا يؤاخذ أحد بظلم آخر . وعلىٰ ما في هـذه الصحيفـة جوار الله وذمـة النبي أبـداً حتىٰ يـأتي الله بـأمره إن نصحـوا

---

(٢٠) انظر الفصلين الثامن والتاسع من الكتاب المذكور .

وأصلحوا فيما عليهم » (٢١) ، وقد دخل يهود نجران في هذا الصلح (٢٢) .

كما نود أن نشير إلىٰ العهود التي كتبها لعدد من التجمعات اليهودية في شمال الجزيرة ، بعد غزوة خيبر (٧ هـ) والسنين التي تلتها ، إذ بعث إلىٰ بني جنبة بمقنا القريبة من إيلة علىٰ خليج العقبة « أما بعد فقد نزل علي رسلكم راجعين إلىٰ قريتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وأن رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم ، لا ظلم عليكم ولا عدىٰ ، وأن رسول الله جاركم مما منع منه نفسه .. وأن عليكم ربع ما أخرجت نخلكم وصادت عروككم (مراكبكم) واغتزل نساؤكم وأنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة ، فإن سمعتم وأطعتم فإن علىٰ رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله .. » . وكتب لجماعة أخرىٰ من اليهود تدعىٰ (بني غاديا) « .. أن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء » ، كما كتب لبني عريض كتاباً آخر يحدد فيه ما عليهم أن يدفعون للمسلمين لقاء حمايتهم لهم وعدم ظلمهم إياهم (٢٣) ، وكتب لأهل جرباء وأذرح من اليهود « أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين » (٢٤) ، وبذلك تمكن الرسول ﷺ من تحويل هذه التجمعات اليهودية إلىٰ جماعات من المواطنين في الدولة الإسلامية يدفعون لها ما تفرضه عليهم من ضرائب نقدية أو عينية ، ويحتمون بقوتها وسلطانها ، ويتمتعون بعدلها وسماحتها

---

(٢١) ابن سعد : الطبقات الكبرىٰ ١ / ٢ / ٣٦ ، ٨٤ ـ ٨٥ ، البلاذري : فتوح البلدان ١ / ٧٦ - ٧٨ ، اليعقوبي : تاريخ ٢ / ٧١ ـ ٧٢ .

(٢٢) البلاذري : فتوح البلدان ١ / ٧٨ .

(٢٣) ابن سعد : الطبقات ١ / ٢ / ٢٨ ـ ٣٠ .

(٢٤) نفسه ١ / ٢ / ٣٨ .

ولقد ظل اليهود ـ والنصارىٰ بطبيعة الحال ـ كمواطنين وليسوا كتلاً سياسية أو عسكرية ـ يمارسون حقوقهم في إطار الدولة الإسلامية لا يمسهم أحد بسوء وعاد بعضهم إلىٰ المدينة بدليل ما ورد عن عدد منهم في سيرة ابن هشام وفي مغازي الواقدي . وهناك الكثير من الروايات والنصوص التاريخية التي تدل علىٰ أن الرسول ﷺ كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح حتىٰ أنه أوصىٰ عامله معاذ بن جبل « بألا يفتن اليهود عن يهوديتهم » وعلىٰ هذا النحو عومل يهود البحرين إذ لم يكلفوا إلا بدفع الجزية وبقوا متمسكين بدين آبائهم [٢٥] .

وجاء الراشدون لكي يشهد المجتمع الإسلامي تنفيذاً في العلاقات الإنسانية بين المسلمين وغيرهم لا يقل تفرداً وتألقاً عما شهده عصر الرسالة . فلقد كان العصر الجديد عصر الفتوح والامتداد الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها ، وكانت مساحات واسعة من الأراضي التي بلغها الإسلام تضم حشوداً كبيرة من اليهود والنصارىٰ والمجوس والطوائف الدينية الأخرىٰ .. لقد أصبح المجتمع الإسلامي بحركة الفتح هذه مجتمعاً عالمياً ضمّ جناحيه علىٰ أعداد : كبيرة من الأجناس والأديان والأقوام والجماعات والمذاهب والفرق والأتجاهات .. ونريد أن نعرف كيف تم التعامل معها عبر عمليات الفتح أولاً ، وبعد استقرار الوجود الإسلامي ثانياً ، وهل تمكن المسلمون من الاستجابة لتحديات التنوع المذهبي في مجتمعهم العالمي الجديد ؟

يقول السير توماس أرنولد الذي سنعتمد مرة أخرىٰ علىٰ عدد من شهاداته بهذا الصدد في كتابه القيم : الدعوة إلى الإسلام The preaching to

---

(٢٥) دراسة في السيرة ص ٣٥٨ .

islam (٢٦) الذي يتضمن تحليلاً مدعماً بالوثائق والنصوص للصيغ الإنسانية التي تبعها الإسلام في تعامله مع أبناء المذاهب الأخرىٰ .

« يمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلىٰ الإسلام . فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية وأخذ علىٰ عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة » (٢٧) .

« إن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تقيم في بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة إلىٰ شيء من التفصيل ، والظاهر أنهم قد انتهوا إلىٰ الامتزاج بالمجتمع الإسلامي الذي كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه (الاندماج السلمي) الذي تم بطريقة لم يحسّها أحد منهم . ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم في الإسلام بالقوة عندما انضووا بادىء الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتىٰ عصر العباسيين » (٢٨) .

« .. لما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية علىٰ شريطة (أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم) وكذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض اهالي المدن المجاورة للحيرة قوله (فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا) .

ويمكن الحكم علىٰ مدىٰ اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر . لما حشد الإمبراطور هرقل

(٢٦) ترجمة د . حسن إبراهيم حسن ورفاقه ، الطبقة الثالثة (مكتبة النهضة ، ـ القاهرة ١٩٧١)
(٢٧) المرجع السابق ص ٦٥ .
(٢٨) نفسه ص ٦٨ .

جيشاً ضخماً لصد قوات المسلمين المحتله ، كان لزاماً علىٰ المسلمين نتيجة لما حدث أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم . فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب كتب إلىٰ عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردّوا عليهم ما جبى من الجزية من هذه المدن وكتب إلى الناس يقول (إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وأنا لانقدر علىٰ ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم علىٰ الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم ، وبذلك ردّت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : (ردّكم الله علينا ونصركم عليهم ـ أي علىٰ الروم ـ فلوا كانوا هم لم يردّوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقى لنا) (٢٩) .

« يكشف تاريخ النساطرة عن نهضة رائعة في الحياه الدينية وعن نواحي نشاطها منذ أن صاروا رعية للمسلمين . وكان أكاسره الفرس يدللون هذه الطائفة تارة ويضطهدونها تارة أخرىٰ ، إذ كان السواد الأعظم من أفرادها يقيمون في ولايات هؤلاء الاكاسرة ، بل مروا بحياة أشد من هذه خطورة ، وخضعوا لمعاملة خشنة قاسية حين جعلتهم الحرب بين فارس وبيزنطة عرضة لشك الفرس فيهم بأنهم كانوا يمالئون أعداءهم من المسيحيين . ولكن الأمن الذي نعموا به في بلادهم في عهد الخلفاء قد مكنهم من أن يسيروا قدماً في سبيل أعمالهم التبشيرية في الخارج ، فأرسلوا البعوث الدينية إلىٰ الصين والهند ، وأرتقىٰ كل منها إلىٰ مرتبة المطرانية في القرن الثامن الميلادي . وفي العصر نفسه تقريباً رسخت أقدامهم في مصر ، ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية في آسيا ، حتىٰ إذا جاء القرن الحادي عشر كانوا قد جذبوا عدداً كبيراً ممن اعتنقوا المسيحية من بين التتار . وإذا كانت

---

(٢٩) نفسه ص ٧٩ .

الطوائف المسيحية الأخرىٰ قد اخفقت في إظهار مثل هذا النشاط القوي فليس هذا الإخفاق خطأ المسلمين ، إذ كانت الحكومة المركزية العليا تتسامح مع جميعهم علىٰ سواء ، وكانت فضلاً عن ذلك تصدّهم عن أن يضطهد بعضهم بعضاً . وفي القرن الخامس (الميلادي) كان برصوما ـ وهو أسقف نسطوري ـ قد أغرىٰ ملك الفرس بأن يدبر اضطهاداً عنيفاً للكنيسة الأرثوذكسية وذلك بإظهار منسطور بمظهر الصديق للفرس ، وإظهار مبادئه بأنها أكثر ميلاً إلىٰ مبادئهم . ويقال أن عدداً يبلغ (٧٨٠٠) من رجال الكنيسة الأرثوذكسية مع عدد ضخم من العلمانيين قد ذبحوا في هذا الاضطهاد . وقام خسرو الثاني باضطهاد آخر للأرثوذكس بعد أن غزا هرقل بلاد فارس وذلك بتحريض أحد اليعاقبة الذي اقنع الملك بأن الأرثذوكس سوف يظهرون بمظهر العطف والميل إلىٰ البيزنطيين . ولكن مبادىء التسامح الإسلامي حرمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي علىٰ الظلم ، بل كان المسلمون علىٰ خلاف غيرهم ، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يُعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس . مثال ذلك أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة اقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثذوكس كنائسهم ولكن المسلمين أعادوها أخيراً إلىٰ أصحابها الشرعيين بعد أن دلل الأرثذوكس علىٰ ملكيتهم لها » [٣٠] .

« ومما يدل علىٰ أن تحوّل المسيحيين إلىٰ الإسلام ـ في مصر ـ لم يكن راجعاً إلىٰ الاضطهاد ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية وهو أنه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطرقية تمتع المسيحيون بالحرية التامة في إقامة شعائرهم ، وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم ، بل ببناء كنائس جديدة ، وتخلصوا من القيود التي حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال ، وحوكموا في

(٣٠) نفسه ص ٧٦ ـ ٨٨ .

محاكمهم الخاصة ، على حين أعفي الرهبان من دفع الجزية ومنحوا « امتيازات معينة » (٣١) .

وما هي إلا لمحات فحسب مما تحدث عنه توماس أرنولد فأطال الحديث ، ولن تغني الشواهد هنا عن متابعة هذا الكتاب - الوثيقة - الذي يجيء على يد باحث يحترم العلم بالقدر الذي لم نألفه لدى الغربيين في تعاملهم مع عقيدتنا وتاريخنا إلاّ نادراً (٣٢) .

ما الذي كان يحدث في المجتماعات الأخرى بين أبناء الدين الغالب وبين المنتمين للأديان والمذاهب الأقل انتشاراً ؟

يقول غوستاف لوبون « لقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي ، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانية مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن . وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الأختلافات ، وكانت مصر التي أكلتها الأنقسامات الدينية وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين » (٣٣) .

ويقول الندوي « ثارت حول الديانة (النصرانية) وفي صميمها مجادلات كلامية شغلت فكر الأمة واستهلكت ذكاءها وتحولت في كثير من الأحيان حروباً دامية ، وقتلاً وتدميراً وتعذيباً ، وإغارة وانتهاباً واغتيالاً ،

---

(٣١) نفسه ص ١٣٠ .

(٣٢) بل إن أرنولد نفسه في كتابه الآخر عن (الخلافة) يقع في عديد من الأخطاء التي تتناقض مع بداهات المعطيات الخاصة بالموضوع .

(٣٣) حضارة العرب ، الطبقة الثالثة ، ص ٣٣٦ (ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب ، القاهرة - ١٩٥٦) .

وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية متنافسة وأقحمت البلاد في حرب أهلية ، وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارىٰ الشام والدولة الرومية ، وبين نصارىٰ مصر ، أو بين الملكانية ، و(المنوفيسية) بلفظ أصح .. وقد أشتد الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع حتىٰ صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارىٰ ، كل طائفة تقول للأخرىٰ إنها ليست علىٰ شيء وشهدت مصر من الفظائع ما تقشعر منه الجلود ، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون إغراقاً ، وتوقد المشاعل وتسلط نارها علىٰ الأشقياء حتىٰ يسيل الدهن من الجانبين إلىٰ الأرض ، ويوضع السجين في كيس مملوء من الرمل ويرمىٰ به في البحر ، إلىٰ غير ذلك من الفظائع » [٣٤] .

وحدث بين النصارىٰ واليهود ما هو أشد هولاً ، ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠ م) علىٰ سبيل المثال ، أوقع اليهود بالمسيحيين في انطاكية فارسل الإمبراطور قائده (ابنوسوس) ليقضي علىٰ ثورتهم فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعاً ، قتلاً بالسيف ، وشنقاً وإغرافاً وتعذيباً ورمياً للوحوش الكاسرة . وحدث ذلك بين اليهود والنصارىٰ مرة بعد مرة .

وهذه واحده من نماذج التعامل بين الطرفين يوردها المؤرخ المصري : المقريزي « في أيام فوقا ملك الروم بعث كسرىٰ ملك فارس جيوشه إلىٰ بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا إلىٰ مصر في طلبهم وقتلوا منهم أمة كبيرة وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر ، وساعدهم اليهود في محاربة النصارىٰ

(٣٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الطبعة الخامسة ص ٢٩ ـ ٣٠ (مكتبة دار العروبة ، القاهرة ـ ١٩٦٤) .

وتخريب كنائسهم ، وأقبلوا نحو الفرس من كل مكان فنالوا من النصارى كل منال ، وأعظموا النكاية فيهم وخربوا لهم كنيستين في القدس وأحرقوا أماكنهم وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه .. وكان هرقل قد ملك الروم ، وغلب الفرس ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ويجدد ما خربه الفرس ، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم علىٰ ذلك ، فأمنهم وحلف لهم ، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارىٰ بالأناجيل والصلبان ، فوجد المدينة وكنائسها خراباً ، فساءه ذلك وأعلمه النصارىٰ بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وحثوا هرقل علىٰ الوقيعة بهم وحسنوا له ذلك ، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم .. فمال إلىٰ قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتىٰ لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فرّ واختفىٰ» (٣٥) .

أماما فعله النصارىٰ بالمسلمين عندما تمكنوا منهم فيكفي أن نشير إلىٰ ما نغذته السلطة والكنيسة الإسبانيتين عن طريق (محاكم التحقيق) مع بقايا مسلمي الأندلس بعد سقوط آخر معاقلهم السياسية : غرناطة مما قصّة علينا بالتفصيل العلمي الموثق محمد عبد الله عنان في كتابه القيم (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) (٣٦) . وما فعلته قوىٰ الأستعمار الصليبي في آسيا وإفريقيا مع الشعوب الإسلامية عبر القرون الأخيرة ، وما تفعله القيادات الإفريقية النصرانية مع المسلمين .

في العصر الأموي والعصور العباسية التالية ، حيث إزداد المجتمع

---

(٣٥) المرجع السابق ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٣٦) وهو الكتاب الرابع من (دولة الإسلام في الأندلس) ، مطبعة مصر ، القاهرة ـ ١٩٥٨ .

الإسلامي تعقيداً واتساعاً ، وحيث أخذت منحنيات الابداع الحضاري تزداد صعوداً واطراداً ، وتزداد معها المؤسسات الإدارية نضجاً ونمواً ، أخذ الموقف من غير المسلمين يتألق بالمزيد من صيغ التعامل الإنساني أخذاً وعطاء .

لقد فتح المسلمون ، قواعد وسلطة ، صدرهم لغير المسلمين يهوداً ونصارىٰ ومجوساً وصابئةً .. وأتاحوا للعناصر المتميزة من هؤلاء وهؤلاء احتلال مواقعهم الاجتماعية والوظيفية في إطار من مبدأ تكافؤ الغرص لم تعرفه أمة من الأمم عبر تاريخ البشرية كله لقد أسهم غير المسلمين في صنع الحضارة الإسلامية وإغنائها ، دونما أية عقد أو حساسيات من هذا الجانب أو ذاك ، كما فتح الطريق أمامهم للوصول إلى أعلىٰ المناصب بدءً من الكتابة في الدواوين وأنتهاءً بمركز الوزارة الخطير نفسه ، وأتيح لأبناء الأديان والمذاهب الأخرىٰ أن يتحركوا في ساحات النشاط الاقتصادي والمالي بحرية تكاد تكون مطلقة ، فنمّوا ثرواتهم وارتفعوا بمستوياتهم الاجتماعية بما يوازي قدراتهم علىٰ العمل ، والنشاط ، وملأوا بهذا وذاك مساحة واسعة في ميدان النشاط الاقتصادي والمالي جنباً إلىٰ جنب مع مواطنيهم المسلمين ، بل إن بعض الأنشطة المالية والاقتصادية كادت أن تصبح من أختصاص أهل الكتاب ، تماماً كما كانت (الترجمة) في المجال الثقافي من نصيبهم ، وكما كانت بعض الوظائف الإدارية والكتابية في المجال الإداري من نصيبهم كذلك .

إنه مجتمع تكافؤ الغرص ، والحرية العقيدية ، والانفتاح . لقد استجاب المسلمون للتحدي الاجتماعي وكانوا في معظم الأحيان عند حسن ظن رسولهم ﷺ بهم وهو يوصيهم قبل انتقاله إلىٰ الرفيق الأعلىٰ أن يكونوا رفقاء بأهل ذمته !!

الوقائع كثيرة ، تيار من المعطيات التاريخية نفذت في ساحة المجتمع الإسلامي عبر القرون الطوال .. نفذت علىٰ مختلف الجبهات ووفق سائر

الاتجاهات الحضارية والإدارية والاقتصادية ، والاجتماعية عموماً ، ونكتفي بشهادة فيليب حتى في كتابه (تاريخ العرب المطول) فهي تحمل دلالتها ـ ولا ريب ـ كشاهد علىٰ معطيات هذا التيار الواسع ..

« تمتع أهل الذمة بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج وارتبطت بالفعل قضاياهم في الأمور المدنية والجنائية القضائية برؤسائهم الروحيين إلا إذا كانت القضية تمّس المسلمين ..

لقد كانت ميسون زوجة معاوية نصرانية كما كان شاعره نصرانيا وكذلك كان طبيبه وأمير المال في دولته .. (٣٧)

« وأقام الذميون في مزارعهم ومنازلهم الريفية وتمسكوا بتقاليدهم الثقافية وحافظوا علىٰ لغاتهم الأصلية ، فكانت لهم الأرامية والسريانية لغة في سوريا والعراق ، والإيرانية في فارس ، والقبطية في مصر .. وفي المدن تقلد النصارىٰ واليهود مناصب هامة في دوائر المال والكتابة والمهن الحرة ، وتمتعوا في ظل الخلافة بقسط وافر من الحرية ونالوا كثيرا من التساهل والعطف . وشهد بلاط العباسيين مناقشات كتلك التي جرت في بلاط معاوية وعبد الملك . وقد ألقى ثيماثاوس بطريرك النساطرة في سنة (٧٨١ م) دفاعاً عن النصرانية أمام المهدي لا يزال محفوظاً نصه إلىٰ اليوم . كذلك تحدرت إلينا رسالة للكندي تصرح أنها بيان لمناقشة جرت سنة (٨١٩ م) في حضرة المأمون في مقابلة بين محاسن الإسلام والنصرانية ...

« وكان للعهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس ترجمات عربية معروفة ، وهناك أخبار تذكر أن رجلاً يدعى أحمد بن عبد الله بن سلام كان قد ترجم التوراة إلىٰ العربية منذ ولاية هارون الرشيد . ولدينا ما

(٣٧) فيليب حتي : تاريخ العرب المطول ، الطبعة الرابعة ١ / ٣٠١ ـ ، ٣٠٢ (دار الكشاف ، بيروت ـ ١٩٦٥) .

يثبت أيضاً أن أقساماً من التوراة كانت قد نقلت إلىٰ العربية في القسم الأخير من القرن السابع ...

« ثم إننا نعرف وزراء نصارىٰ قاموا في الشطر الثاني من القرن التاسع منهم عبدون بن صاعد .. وكان للمتقي وزير نصراني كما كان لأحد بني بويه وزير آخر . أما المعتضد فقد جعل علىٰ المكتب الحربي لجيش المسلمين رئيساً نصرانياً . وقد نال أمثال هؤلاء النصارىٰ من أصحاب المناصب العالية ما ناله زملاؤهم المسلمون من الإكرام والتبجيل .. وكانت أكثرية أطباء الخلفاء أنفسهم من أبناء الكنيسة النسطورية . وقد نشر أخيراً براءة منحها المتلقي سنة (١١٣٨ م) لحماية النساطرة وهي توضح مدىٰ العلاقات الودية بين رجال الإسلام الرسميين وبين رجال النصرانية .

« ومن أعجب الظواهر في حياة النصرانية في ظل الخلفاء أنه كان لها من القوة والنشاط ما دفع بها إلى التوسع فافتتحت لها مراكز تبشيرية في الهند والصين » ..

« ولقد لقي اليهود من محاسنه المسلمين فوق ما لقيه النصارىٰ برغم ما في بعض الآيات القرآنية من تنديد بهم . والسبب أنهم كانوا قليلي العدد فلم يخش أذاهم . وقد وجد المقدسي سنة (٩٨٥ م) أن أكثر الصيارفة وأرباب البنوك في سورية يهود ، واكثر الكتبة والأطباء نصارىٰ . ونرىٰ في عهد عدد من الخلفاء ـ وأخصهم المعتضد ـ أنه كان لليهود في الدولة مراكز هامة ، وكان لهم في بغداد مستعمرة كبيرة ظلت مزدهرة حتى سقوط المدينة وقد زار هذه المستعمرة بنيامين التطيلي حول سنة (١١٦٩ م) فوجد فيها عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرين كنيساً .. وأفاض بنيامين في وصف الحفاوة التي لاقاها رئيس اليهود البابليين من المسلمين بصفته سليل بيت داود النبي ورئيس الملة الإسرائيلية .. وقد كان لرئيس الحاخامين هذا

من السلطة التشريعية علىٰ أبناء طائفته ما كان للجا ثليق علىٰ جميع النصارىٰ . وقد روى أنه كانت له ثروة ومكانة وأملاك طائلة فيها الحدائق والبيوت والمزارع الخصبة ، وكان إذا خرج إلىٰ المثول في حضرة الخليفة ارتدىٰ الملابس الحريرية المطرزة وأحاط به رهط من الفرسان وجرىٰ أمامه ساع يصيح بأعلىٰ صوته : (أفسحوا دربا لسيدنا ابن داود) .. » (٣٨) .

وما يقال عن العصرين الأموي والعباسي يمكن أن يقال عن العصور التي تلتهما : الفاطميون والأيوبيون والمماليك والعثمانيون ، لولا بعض ردود الأفعال الغاضبة التي اعتمد فيها العنف لأول مرة بسبب من مواقف عدائية معلنة اتخذتها هذه الفئة أو تلك من أهل الكتاب ، فمالأت خصوم المسلمين ووضعت أيديها بأيدي الغزاة الذين قدموا لإبادتهم وإفنائهم وتآمرت سرّاً وجهراً لتدمير عقيدتهم وإزالة ملكهم من الارض ، ويمكن أن يذكر المرء - ها هنا - المواقف العدائية العديدة التي اتخذها نصارىٰ الشام والجزيرة والموصل ، والعراق بعامة ، خلال محنة الغزو المغولي حيث رحبت جماعات منهم بالغزاة وتآمرت معهم ضد مواطنيهم المسلمين ، فاحتضنهم الغزاة واستخدموهم في فرض هيمنتهم واتخذوهم مخالب لتمزيق أجساد المسلمين الذين عاشوا معهم بحرية وإخاء عبر القرون لطوال ، ويمكن ان نتذكر كذلك التجارب المرة نفسها التي مارستها جماعات من اليهود والنصارىٰ عبر العصر العثماني ، وردود الأفعال العثمانية إزاءها .. إلىٰ أخره . لكن هذه (الحالات) لم تكن في نهاية التحليل - ومن خلال نظره شمولية لحركة المجتمعات الإسلامية عبر التاريخ - سوىٰ استثناءات أو نقاط سوداء محدودة

---

(٣٨) المرجع السابق ٢ / ٤٣٢ - ٤٣٨ ، وانظر : ول ديورانت : قصة الحضارة ١٣ / ١٣١ ، ترتون : أهل الذمة ص ١٧٠

علىٰ صفحة واسعة تشع بياضاً ، علىٰ العكس تماماً مما شهدته المجتمعات الأخرىٰ حيث كانت حالات الحرية والعدالة وتكافؤ الفرص بين أصحاب الدين الحاكم ومخالفيه نقاطاً استثنائية بيضاء في صفحة تنفث حقداً ودخاناً .

ومن عجب أن مرحلة الحروب الصليبية نفسها ، تلك التي دامت حوالي القرنين من الزمن وكان الغزاة فيها يحملون صليب الطائفية والكراهية ضد كل ما هو إسلامي ، والتي جاءت لكي تدمر على المجتمع الإسلامي أمنه واستقراره وتفتنه عن دينه لصالح الكنيسة المتعصبة ، هذه التجربة المرة لم تسق القيادات والمجتمعات الإسلامية إلىٰ ردود فعل طائفية تقودهم إلىٰ عدم التفرقة وهم يتحركون بسيوفهم ، بين الغزاة وبين النصارىٰ المحليين ، رغم أن فئات من هؤلاء تعاونت علناً مع الغزاة ووضعت أيديها في أيديهم وتآمرت معهم علىٰ إنزال الدمار بالإسلام والمسلمين .

ولحسن الحظ فإن الغزاة الذين انطلقوا أساساً من نقطة التعصب والمذهبية مارسوا الطائفية نفسها إزاء رفاقهم في العقيدة ممن ينتمون لأجنحة نصرانية اخرىٰ بدء من البيزنطيين الارثذوكس وانتهاء بكافة الفئات النصرانية المحلية ممن لم تدن بالمذهب الكاثوليكي الذي انضوىٰ تحت لوائه معظم الغزاة ، ولولا ذلك لا متدت مساحة التعاون بين الطرفين فيما كان يمكن أن يؤدي إلىٰ نتائج أكثر وخامة .

المهم أننا لم نشهد عبر مرحلة الحروب الصليبية هذه بثوراً طائفية في نسيج المجتمع الإسلامي كرد فعل لغزو هو في أساسه ديني متعصب .. لم نسمع بمذبحة ارتكبها المسلمون ضد رفاقهم في الارض ، ولا بعمل انتقامي غير منضبط نفذوه ضد مواطنيهم وأهل ذمتهم !!

وما من شك في أن هذا الانفتاح الذي شهده المجتمع الإسلامي إزاء العناصر غير الإسلامية ، والفرص المفتوحة التي منحها إياهم قد قاد بعض الفئات ـ كما رأينا ـ إلىٰ ما يمكن اعتباره استغلالاً للموقف السمح ومحاولة لطعن المسلمين في ظهورهم ، وتنفيذ محاولات تخريبية علىٰ مستوى السلطة حيناً ، والعقيدة حيناً ، والمجتمع نفسه حيناً ثالثاً ، وإننا لنتذكرهنا ـ علىٰ سبيل المثال كذلك ـ ما فعلته بعضى الطوائف اليهودية بدءاً من محاولات السبأية وانتهاء بمؤامرة (الدونمة) لا سقاط الخلافة العثمانية مما سبق وأن عرضنا لخطوطه العريضة في فصل سابق ، وما فعلته بعض الطوائف المجوسية في العصر العباسي فيما يشكل العمود الفقري للحركة الشعوبية التي استهدفت العرب والمسلمين علىٰ السواء فيما سبق وأن اشرنا إليه كذلك .

لكن هذه الخسائر التي لحقت بالمسلمين من جراء تعاملهم الإنساني مع مخالفيهم في العقيدة ، والمخاطر التي تعرضوا لها عبر تاريخهم الطويل من قبل هؤلاء الخصوم الذين استغلوا الفرصة وسعوا إلىٰ ممارسة التخريب والتآمر والالتفاف ، لاتبّرر البتة اعتماد صيغ في التعامل غير تلك التي اعتمدها المسلمون في تاريخهم الاجتماعي الطويل .. وتقاليد غير تلك التي منحهم إياها ورباهم عليها كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام وتجارب الآباء والأجداد .

إن الخسائر الجزئية ـ مهما كانت فداحتها ـ لأهون بكثير من الخسارة الكبرىٰ ذات البعد الإنساني ، وأن الإسلام نفسه ، قبل غيره من الأديان ـ كان سيخسر الكثير لو حاول أن يسعىٰ إلىٰ تحصين نفسه بالحقد والطائفية والردود المتشنجة التي تجاوز حدودها المعقولة والمبررة .

وإن الانسان نفسه كان سيغدو الضحية لو أن المجتمع الإسلامي خرج علىٰ التقاليد النبيلة المتألقة التي علمه إياها رسوله ومعلمه عليه السلام لأنه ،

فيما عدا التاريخ الإسلامي ، فإنه ليس ثمة تجربة في تاريخ البشرية ، قديماً وحديثاً ، احترم فيها فكر المخالفين وصينت عقائدهم وحميت حقوقهم ، بل كانوا ـ علىٰ العكس تماماً ـ هدفاً للاستبعاد والهوان ، والضياع ، بل التصفية والإفناء .

وستظل التجربة الإسلامية ، كما كانت ، المنار الهادي للمدلجين في ظلمات التاريخ .

* * *

د ـ الإطار الرابع : الرجل والمرأة

ليس ثمة معضلة أو قضية في تاريخ المجتمع الإسلامي تسمىٰ معضلة المرأة أو قضية المرأة ، إن المسألة إفراز مَرَضيّ جاءنا من الغرب ، يوم أن أخذت مجتمعاتنا تنفذ قيمه وتقاليده ، وليس كما يتصور بعض السذج أو يصوّر بعض الخبثاء من أن المشكلة تكمن في الإسلام نفسه .

لقد جاء الإسلام لكي ينتصر للإنسان ، وينصف المظلوم ، ويخرج ببني آدم من ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام ، وكانت المرأة واحدة من العناصر البشرية التي استهدف الإسلام الانتصار لها وإنصافها وتحريرها ووضعها في مكانها اللائق الكريم علىٰ خارطة المجتمع الجديد .

ولقد كان عصر الرسالة بمثابة التنفيذ التاريخي لمعطيات الإسلام إزاء المرأة ، وإننا بمجرد مقارنة سريعة بين ما كانت عليه في العصر الجاهلي ، علىٰ كافة المستويات ، وبين ما صارت إليه بعد مجيء الإسلام ، تتبيّن كيف يكون هذا الدين ـ في جانب من جوانبه ـ حركة من أجل حقوق المرأة في عالم كان الرجل يستعبد فيه كل من لا يجد قانوناً يحميه أو سلطة فعلية يأوي اليها .. « كانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف ، تُؤكل حقوقها وتبتز أموالها وتحرم إرثها وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه ، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة . عن ابن عباس قال (كان الرجل إذا مات أبوه أو حميه فهو أحق بامرأته ، إن شاء أمسكها حتىٰ تفتدىٰ بصداقها أو تموت فيذهب بمالها) ، وقال عطاء بن أبي رباح : إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل فترك امرأة حبسها أهله علىٰ الصبي يكون فيهم . وقال السدي : إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه

أو ابنه ، فإذا مات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فألقىٰ عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو ينكحها فيأخذ مهرها ، وإن سبقته فذهبت إلىٰ أهلها فهي أحق بنفسها . وكانت المرأة في الجاهلية يطفف معها الكيل ، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هي بحقوقها ، يؤخذ مما تؤتىٰ من مهر وتمسك ضراراً للاعتداء ، وتلاقي من بعلها نشوزاً أو اعراضاً ، وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة . ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم علىٰ الإناث . وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد .

« وقد بلغت كراهة البنات إلىٰ حد الوأد . ذكر الهيثم بن عدي أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد البنات فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن ، ومنهم من كان يئد البنات تشاؤماً منهم بإحدىٰ الصفات ، منهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق وخوف الفقر ، وهم الفقراء فكان يشتريهم بعض سراة العرب ، قال صعصعة بن ناجية : جاء الإسلام وقد فديت ثلاثمائة موءودة ، ومنهم من يقول : الملائكه بنات الله ، سبحانه عما كا يقولون ، فألحقوا البنات به تعالىٰ فهو عز وجل أحق بهن .

« وكانوا يقتلون البنات ويئدونهن بقسوة نادرة في بعض الأحيان ، فقد يتأخر وأد الموءودة لسفر الوٰلد وشغله فلا يئدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل ، وقد حكوا في ذلك عن أنفسهن مبكيات ، وقد كان بعضهم يلقى الأنثىٰ من شاهق » . (٣٩) .

---

(٣٩) الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٥٩ ـ ٦١ .

وماذا عن (المرأة) في مجتمعات العالم الأخرىٰ ؟

في الهند كان محتوماً علىٰ المرأة أن تظل مملوكة لأبيها بكراً ولبعلها ثيباً ولأولادها أيماً ، ثم تقدم ضحية علىٰ نيران زوجها إذا مات عنها . وتحرم حقوق الملكية والإرث ، وتلزم بأشد ما يكون من قوانين الزواج مما يسيغ تسليم المسكينة إلىٰ رجل من الرجال بغير رضاها واستصوابها ، ثم لا يجيز لها أن تتخلص من حيازته إلىٰ آخر حياتها . وكانوا يرون فيها مادة الإثم وعنوان الانحطاط الخلقي والروحي ولا يسلّمون لها حتىٰ بوجود الشخصية المستقلة (٤٠) .

وليس من حق المرأة الهندية أن تتزوج إذا مات زوجها ، وتغدو هدف الإهانات والتجريح وتصبح أمة بيت زوجها المتوفىٰ وخادم الأحماء ، وكان من استهتارهم بالمرأة أن يقامرون عليها ـ أحياناً ـ وقد يخسرون بذلك زوجاتهم (٤١) .

في اليونان ، في عصورها المبكرة كانت المرأة في غاية من الانحطاط وسوء الحال من حيث نظرية الأخلاق والحقوق القانونية والسلوك الاجتماعي جميعاً . فلم تكن لها في مجتمعهم منزلة أو مقام كريم . وكانت الأساطير اليونانيه قد اتخذت امرأة خيالية تسمىٰ (باندورا) ينبوع جميع آلام الإنسان ومصائبه ، تماماً كما جعلت الأساطير اليهودية حواء : العين التي تنشق منها جداول الآلام والشدائد . وغير خاف علىٰ أحد ما كان لهذه الأسطورة اليهودية الشنيعة عن حواء من تأثير سيء في سلوك الأمم اليهودية ، والمسيحية ـ فيما بعد ـ تجاه المرأة ، وما كان لها من مفعول قوي

---

(٤٠) أبو الأعلىٰ المودودي : الحجاب ، ص ٤٠ ـ ٤١ . (تعريب محمد كاظم السباق ، دار الفكر الإسلامي ، دمشق ـ ١٩٥٩) .

(٤١) الندوي : المرجع قبل السابق ص ٥١ ـ ٥٢ .

في حقول القانون والأخلاق والاجتماع لدىٰ هذه الشعوب ، وهذا ما حدث بالنسبة لتأثير الأسطورة اليونانية في عقول اليونانيين وسلوكهم ، فلم تكن المرأة عندهم إلاّ كائناً من الدرك الأسفل في غاية من المهانة والذل في كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية (٤٢) أما في العصر الروماني المبكر فقد بلغ من سلطة الرجل أن كان يجوز له حتىٰ قتل زوجه في بعض الأحيان (٤٣) .

ولم تكن المرأة في عصر أوربا النصرانية بأحسن حالاً ، فقد نظر إليها علىٰ أنها ينبوع المعاصي وأصل السيئات والفجور ، وهي للرجل باب من أبواب جهنم بل هي مصدر تحريكه وحمله علىٰ الآثام . ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء ، وبحسبها خزيا أنها امرأة . وبحسبنا أن نطالع ما قاله ترتوليان ، أحد أقطاب المسيحية الأول مبيناً نظرية المسيحية في المرأة « إنها مدخل الشيطان إلىٰ نفس الإنسان ، وإنها دافعة بالمرء إلىٰ الشجرة الممنوعة ، ناقضة لقانون الله ، ومشوّهة لصورة الله : أي الرجل » . وكذلك يقول كراي سوستام الذي يعد من كبار رجالات الديانة المسيحية في شأن المرأة « أنها شر لابد منه ، ووسوسة جبليّة وآفة مرغوب فيها ، وخطر علىٰ الأسرة والبيت ، ومحبوبة فتاكة ، ورزء مطليّ مموه » (٤٤) .

أما نظريتهم الثانية في باب النساء فخلاصتها أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هي نجس في نفسها يجب أن تتجنب ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمي مشروع . وأصبحت حياة العزوبة مقياساً لسمو

---

(٤٢) المودودي : الحجاب ص ١٤ ـ ١٥ .

(٤٣) نفسه ص ٢٠ .

(٤٤) نفسه ص ٢٥ ـ ٢٦ .

الأخلاق ، كما صارت الحياة العائلية علماً على انحطاط الأخلاق ومهانة الطباع ، وجعلوا يعدّون تجنب الزواج من أمارات التقوىٰ ، وأصبح من المحتوم لمن يريد أن يعيش عيشة نزيهة أن لا يتزوج أصلاً ، أو لا يعاشر امرأته معاشرة الزوج لزوجته علىٰ الأقل . ولم يدخر رجال النصرانية جهداً لكي يثبتوا في قلوب الناس الشعور ببشاعة العلاقة الزوجية وتنجسّها . ولقد تجاوز تأثير هاتين النظريتين في الحط من شأن المرأة في مجال الأخلاق والاجتماع إلىٰ القوانين نفسها التي جعلت المرأة تحت سلطة الرجل الكاملة من الوجهة الاقتصادية ، وضيّق الخناق علىٰ حقوقها في الإرث والملكية ، ولم يكن لها حق في كسب يدها بل كان كل ما عندها ملك لزوجها . ولم يكن الطلاق مباحاً للطرفين بأية حال من الأحوال ، ومهما بلغ البغض والتنافر بين الزوجين ، ومهما بلغت عشرتهما من الخلاف وسوء التفاهم ، فإن القانون يحتم عليهما دوام الرباط الزوجي . وأقصىٰ ما يمكن فعله في حالات كهذه هو التفريق بين الزوجين ، لكن ما كان يحق لأي منهما بعد ذلك أن يختار رفيقاً آخر للحياة ، فكان عليهما أن يختارا عيشة الرهبنة أو الفجور .

وكذلك الحال اذا توفي أحد الزوجين فإنه يعد إثماً بالغاً أن يتزوج الطرف الآخر ، وإذا فعل سمىٰ رجال الكنيسة ذلك (زنا مهذباً) (٤٥) .

إن المرء ليلحظ وهو يتابع حركة المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي الجديد كيف أنها كانت تمارس الفعل التاريخي جنباً إلىٰ جنب مع الرجل ، كيف أنها كانت تنزل إلىٰ الشارع ، والمسجد ، والمؤسسة ، وتذهب إلىٰ سوح

---

(٤٥) نفسه ص ٢٦ ـ ٢٩ . وانظر عن المكانة السيئة للمرأة في تقاليد الأمم والجماعات غير الإسلامية ، وفي تعاليمهم وشرائعهم : غوستاف لوبون : حضارة العرب ، الطبعة الثالثة ص ٤٠٦ ـ ٤٠٩ .

العلم وساحات القتال .. كيف أنها كانت تسهم مع الرجل في تحريك النول ذات اليمين وذات الشمال لتوسيع مساحة النسيج الإسلامي الجديد ، وإغنائه ، وتمتين حبكته .

إن القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ عندما تخاطب المسلمين بأمر أو تكليف أو إخبار .. لا تخاطب الرجل وحده ولكنها تخاطب الرجل والمرأة معاً ، ومعطيات المجتمع الإسلامي بدءاً من تكون نواته الأولىٰ حيث لعبت خديجة أم المؤمنين دورها المعروف ، وعبر سني عصر الرسالة كلها ، كانت المرأة والرجل حاضرين معاً في قلب الأحداث .

وكلنا نذكر كيف كانت خديجه رضي الله عنها أول المؤمنين بدعوة الرسول ﷺ ، وكيف كان لإيمانها ذاك أثر عميق في معنوية الرسول ﷺ ، وهو يجابه بالتوحيد شرك العرب جميعاً ، فكان كلما سمع من معارضيه رداً أو تكذيباً ، شكىٰ ما يلقىٰ لزوجته البَرة فتثبته وتخفف عنه وتهون عليه أمر الناس .

وكيف أن عدداً من النساء المسلمات هاجرن إلىٰ الحبشة وتغربن هناك : رقية زوجة عثمان وابنة الرسول ﷺ ، سهلة بنت سهيل زوجة أبي حذيفة بن عتبة ، أم سلمة بنت أبي أمية زوجة أبي سلمة بن عبد الأسد ، ليلىٰ بنت أبي حثمة زوجة عامر بن ربيعة .. وكيف أن امرأتين من يثرب قدمتا مع ثلاثة وسبعين رجلاً من الأوس والخزرج لمبايعة الرسول ﷺ .. وكيف أن أسماء بنت أبي بكر كلفت بتوفير الطعام للرسول عليه السلام وصاحبه الصديق رضىٰ الله عنه أيام الهجرة الصعبة ..

وكلنا نذكر أن المرأة المسلمة استقبلت عذاب القرشيين وفتنتهم ببطولة فذة لا تقل عن بطولة الرجل المسلم : كانت زنيرة قد عذبت حتىٰ عميتْ ، فقال لها أبو جهل : ان اللات والعزىٰ فعلتا بك ما ترين . فقالت وهي لا

تبصره : وما تدري اللات والعزىٰ من يعبدهما ممن لا يعبدهما ، ولكن هذا أمراً من السماء .. وكانت النهدية أمة لامرأة من بني عبد الدار وكانت تعذبها وتقول : والله لا أقلعت عنك أو يعتقك بعض من صبأتك ، فابتاعها أبو بكر وأعتقها . وكانت أم عنيس أمة لبني زهرة فكان الاسود بن عبد يغوث يعذبها حتىٰ ابتاعها أبو بكر وأعتقها .

ونذكر كيف قاتلت جنباً إلىٰ جنب مع الرجل .. قاتلت نسيبة بنت كعب مع زوجها وولديها ، فأبلت بلاءً حسناً فجرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح وضربة بسيف ، ودافعت عن الرسول ﷺ إزاء محاولات قتله من قبل المشركين دفاعاً مستميتاً ، ولما جرح أحد ابنيها وراح الدم ينزف منه بغزارة من عضده اليسرىٰ ، سعت أمه إليه وربطت جرحه بعصابة كانت قد أعدتها لمداواة الجرحىٰ ثم قالت له : انهض يا بني فضارب القوم ، والرسول ﷺ يناديها : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟ ويلتفت إلىٰ أصحابه قائلاً : ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني ، وإذ تضمن وعده بالجنة تهتف : ما أبالي ما أصابني من الدنيا .

وخرجت السميراء بنت قيس ، وقد أصيب ابناها ، فلما نعيا لها قالت : ما فعل الرسول ﷺ ؟ قالوا : خيراً ، هو بحمد الله علىٰ ما تحبين . قالت : أرونيه أنظر إليه فأشاروا إليه قالت : كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل . ولقيت أم أيمن جماعة من المنهزمين فجعلت تنثر التراب بوجوههم وتقول : هاك المغزل فاغزل به !! .

وكلنا نذكر كذلك أن المرأة المسلمة تعلمت وعلمت ، وسمعت وحدّثت .. إن غياب المرأة عن الساحة الاجتماعية وعدم حضورها اليومي في سدىٰ الحركة الاجتماعية ولحمتها ، لهو تقليد متأخر ما عرفته عصور الإسلام المتألقة عبر المسيرة الطويلة .

وصحيح أن البيت هو مكان المرأة الطبيعي في المجتمع الإسلامي من أجل أن تمارس وظيفتها الأساسية في حجر الزاوية والخلية الأساسية للمجتمع ، ومن أجل أن تنسجم مع تكوينها وقدراتها ومهمتها في العالم ، إلاّ أن هذا لم يحجب أو يمنع نزول المرأة إلىٰ قلب المجتمع ، إلىٰ ساحته الكبيرة لكي تسهم بفعلها وحضورها هناك جنباً إلىٰ جنب مع إسهامها في البيت . إن الوظيفة الأولى لا تنفي الوظيفة الثانية بل تعد أساسها وقاعدتها ، وإن التاريخ الإسلامي ليشهد علىٰ صدق هذه المقولة حيث برزت المرأة وتألقت : ربة بيت وزوجة وأماً ، وأيضاً .. معلمة ومتعلمة ، وطبيبة وباحثة ، وسياسية وعاملة وتاجرة ومقاتلة ..

فما دامت المرأة ، في المجتمع المسلم ، تتحرك وفق الشروط والمواصفات والتقاليد التي رسمها الإسلام وأرساها نبيه الأمين وصحابته الكرام ، فإنه لا ضير في أن تذهب وتجيء ، وتفعل وتقول ، وتمارس التعبير عن قدراتها في الساحة التي تجد أنها أهل للتحقق من خلالها .

إن الاسلام هو في ناحية من نواحيه عقيدة تحقيق الذات ، وإن المرأة لهي إحدىٰ الأقطاب التي جاء الإسلام لكي يعينها علىٰ هذا التحقّق .

إن الأمر لا يقتصر علىٰ عصر الرسالة وحده ، ولكنه يمتد صوب العصور التالية حيث يزداد دور المرأة ويتسع بمقاييس الكم والنوع ، وحيث يكون حضورها ضربة لازب ، لم تكن في يوم من الأيام موضعاً للجدل أو النقاش .

وكلنا نعرف ما فعلته المرأة المسلمة في مجتمع العصر الراشدي : في سلمه وحربه ، في سياسته ومعطياته الحضارية علىٰ السواء ، وفيما بعد ، عبر العصور التالية : الأموية والعباسية حيث انفسح مدىٰ النشاط الاجتماعي وحيث انداحت دائرة المجتمع المسلم لكي تضم عناصر ومعطيات وخبرات

جديدة ، ولكي تزدحم شبكة العلاقات الاجتماعية بالمزيد من الجزئيات والتفاصيل ، نلتقي بدورٍ أشد كثافةً للمرأة المسلمة وعلى كافة المستويات ، وبحشود يصعب حصرها من النسوة المسلمات اللواتي لعبن دورهن المتألق في هذه الساحة أو تلك من ساحات الأنشطة الاجتماعية والسياسية والثقافية ، والحضارية عموماً .

إن الوقائع كثيرة مزدحمة ومن ثم نكتفي باللمسات والإشارات العابرة بدلاً من الدخول في بحر التفاصيل والجزئيات .

« كانت النساء في عهد الخلفاء الراشدين يختلطن بالجمهور ويسمعن خطب الخلفاء ويحضرن المحاضرات التي كان يلقيها علي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس رضي الله عنهما ، وغيرهما .. واشتهر من نساء العرب في هذا العصر عائشة أم المؤمنين التي ضربت بسهم وافر في الفقه ورواية الحديث والفتيا والأدب والتاريخ والنسب ، وقادت جند المسلمين يوم الجمل ، وأختها أسماء ، أم عبد الله بن الزبير التي اشتهرت برواية الحديث والشجاعة والكرم ، وعكرشة بنت الأطرش التي اشتركت في الحرب بين علي ومعاوية . وكانت المرأة العربية تصحب الجيش ويخصص لها مكان في المدن الحصينة والمعسكرات ...

« ومن شهيرات نساء العصر الأموي أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر ، وكانت لها مكانة ملحوظة في قصر الخليفة الوليد الذي كان يستشيرها في مهام الدولة . وكانت السيدة سكينة بنت الحسين بن علي سيدة نساء عصرها ، ومن أظرفهن وأحسنهن أخلاقاً . اجتمع إليها يوماً جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب ، فنقدت شعر كل منهم ، ثم أجازت كلاً بألف دينار . وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من النساء اللاتي نبغن

في الأدب وأيام العرب والنجوم . وفدت على هشام بن عبد الملك يوماً فقال لها : ما أوفدك ؟ قالت : حبست السماء المطرومنع السلطان الحق . قال : إني سأعرف حقك ، ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال : إن عائشة عندي فاسمروا عندي الليلة ، فحضروا فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته : فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت : أخذتها عن خالتي عائشة ، فأمر لها بمائة ألف درهم وردها إلى المدينة »(٤٦) .

« وفي العصر العباسي الأول كانت المرأة تتمتع بقسط وافر من الحرية ، وتدخل بعضهن في شئون الدولة ، كالخيزران زوج الخليفة المهدي وأم الهادي والرشيد ، وكانت كثيراً ما تسأل ابنها الهادي قضاء حاجات المترددين على بيتها . وتمتعت السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأم الأمين بنفوذ كبير في الدولة ، فإنها حين حجت بيت الله سنة (١٨٦ هـ) وأدركت ما يعانيه أهل مكة من المشاق في الحصول على ماء الشرب ، دعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد وقالت له : اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً . ووفد على مكة أكفأ المهندسين والعمال ووصلوا بين منابع الماء في الجبال حتى وصل إلى مكة ولا يزال يجري إليها حتى اليوم .

« وكذلك ساهمت المرأة في هذا العصر في الحروب ، فاشتركت فيها أم عيسى ولبابة بنتا علي بن عبد الله بن عباس عم الخليفة المنصور . وكن في عهد الرشيد يمتطين الجياد ويقدن الجند إلى ميدان القتال ... كما بلغت المرأة

---

(٤٦) د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، الطبقة السادسة ١ / ٥٤٦ ـ ٥٤٧ .

في هذا العصر مبلغاً عظيماً من الثقافة حتىٰ كانت تنظم الشعر وتناظر الرجل في عهد الرشيد والمأمون . وكانت السيدة زبيدة شاعرة مثقفة وكثيراً ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أبياتاً شعرية إلىٰ زوجها الرشيد .

« وفي الأندلس كان للمرأة شأن كبير وقامت الجواري بدور هام في قصور الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة .. وكانت بعض النساء أديبات ، راويات للشعر حافظات للأخبار ، حسنات الخط .. »(٤٧) .

وفي العصور العباسية التالية استمرت المرأة « تتمتع بقسط وافر من الحرية وتتدخل في شئون الدولة ، كقبيحة أم المعتز والسيدة أم المقتدر وقهرمانتها ، وأم موسىٰ ، وست الملك أخت الخليفة العزيز الفاطمي والسيدة صبح أم هشام بن الحكم في الأندلس . وقد قامت قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ) بدور هام في عزل الخليفة المستعين ليصفو الجو لابنها المعتز ... واستأثرت (السيدة) أم الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠) بنفوذ كبير في الدولة العباسية ، وليس أدل علىٰ ذلك من الكتاب الذي بعث به إليها الوزير المصلح علي بن عيسىٰ يتنصل فيه من التبعات التي ألقتها عليه في إدارة شئون الدولة المالية .. ولقد اتسع نفوذ (السيدة) إلىٰ حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها (ثومال) صاحبة للمظالم ، فكانت تجلس أيام الجمع في مكان بنته السيدة في الرصافة ...

« وقد ازداد نفوذ حرم الخليفة في عهد الوزير حامد بن العباس وأصبحن يتدخلن في شئون الدولة ، فكن يجلسن للمظالم وينظرن في رقاع الناس ويصدرون الأوامر مزيلة بتوقيعاتهن . كما عملت (السيدة) علىٰ عزل الوزير أبي العباس أحمد وصودرت أمواله في سنة ٣١٤ هـ . وكذلك كان

---

(٤٧) نفسه ٢ / ٤١٦ ـ ٤٢٠ .

للنساء دور كبير في شئون الدولة الفاطمية ، وبرزت من بينهن ست الملك زوجة الحاكم التي تميزت بالحزم ورجاحة العقل واشتهرت بالكرم والحلم ، وتركت لدىٰ وفاتها ثروة ضخمة ..

« .. وفي الأندلس استمرت المرأة تلعب دوراً كبيراً ، وكلنا نذكر ما تمتعت به السيدة صبح زوجة الحكم الثاني من نفوذ كبير وكيف أنها تغلبت علىٰ أمور ابنها المؤيد الذي لم يكن قد جاوز العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إليه ، وأصبحت تتمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذي لا يحدّ ، وأسندت أمور الدولة إلىٰ المنصور بن أبي عامر الذي غدا ساعدها الأيمن .. » (٤٨) .

وإذا كانت المرأة في نطاق الأسرات الحاكمة قد لعبت دوراً سياسياً مشهوداً بحكم قربها من السلطة وارتباطها بالأجهزة الحاكمة وذوي السلطان ، فإن المرأة المسلمة عموماً لعبت أدواراً أخرىٰ علىٰ مستوىٰ الثقافة والتربية لا تقل أهمية بحال من الأحوال . والملاحظ أن كثيراً من هاتيك النساء لم يكن ينتمين إلىٰ القصور ، أو يرتبطن بالغنىٰ والجاه والسلطان ، بل كن من عامة الناس ومن أبناء الشعب علىٰ امتداده . وبمجرد إلقاء نظرة على كتب التراجم التي تغمر مكتبتنا التاريخية ، يتبيّن لنا حجم الدور الثقافي والتربوي الذي لعبته المرأة المسلمة وهي تتحرك في القاعدة وتنطلق من صميم الشعب بعيداً عن مراكز السلطة والغنىٰ والجاه ، يدفعها إلىٰ ذلك إيمانها العميق وحرصها علىٰ التعلّم والتعليم باعتباره جزءاً أساسياً من تكوينها الديني الذي ظلت إلىٰ فترة قريبة تضرب به الأمثال .

وثمة ما يجب أن نقف عنده قليلاً ونحن نتحدث عن محور (المرأة

(٤٨) نفسه ٣ / ٤٤٥ ـ ٤٤٨ وانظر عن مكانة المرأة في تاريخ الإسلام : غوستاف لوبون : حضارة العرب ، الطبقة الثالثة ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣ .

والرجل) في تاريخ المجتمع الإسلامي : إنها المسألة الجنسية ، ولا أقول المعضلة ما دامت أنها في الإسلام تتحرك وفق سويتها المتوازنة فلا تميل ولا تجور ولا تعقد فتتحول من تجربة دفع وانطلاق إلىٰ معضلة كبت أو انحلال .

إننا ننظر إلىٰ التجارب المريرة التي تعانيها مجتمعات القرن العشرين ، في نطاق المسألة الجنسية ، فنجدها تتأرجح بين كبت معقّد وانحلال مدمر ، وهما الحدّان اللذان حذّر منهما الإسلام لأنهما يؤولان إلىٰ إلحاق الأذىٰ بالإنسان وبأنشطته الذاتية ، وبالتالي بقدرات المجتمعات البشرية على الفعل والإنجاز .

ومهما قلّبنا وجوهنا وأبصارنا في مجتمعات القرن العشرين فإننا نجد ـ إلاّ في حالات شاذة نادرة ـ جنوحاً صوب هذا الاتجاه أو ذاك ، فإن التفلّت والانحلال هما كالكبت والانكماش ، لا يقودان بحال إلىٰ ما يمكن أن يحقق سوية الإنسان رجلاً كان أم امرأة ، ومن ثم يكون (الميل العظيم) الذي حذرنا منه كتاب الله والذي نشهده بأم أعيننا في ساحات الحضارة المادية المعاصرة .

أما المجتمع الإسلامي فقد قدر ـ بشكل عام ـ علىٰ حماية التقليد الذي علمه إياه الإسلام : التشبث بالتوازن الفذ بين الكبت والإباحة ، هنالك حيث يتحقق الإشباع المطلوب وحيث يحتفظ ـ في الوقت نفسه ـ بالقدرة علىٰ الفعل والإنجاز ، وحيث تظل العلاقات الاجتماعية متينة متماسكة ، ويظل نسيجها متألقاً نظيفاً .

إن الهندسة المعجزة للمسألة الجنسية في الإسلام قد انسحبت بدرجة أو أخرى علىٰ المجتمعات الإسلامية عبر التاريخ ، وإننا بمجرد مقارنة (التجربة) في هذه المجتمعات بما حدث أو يحدث في المجتمعات الأخرىٰ

الدينية المحرفة ، أو العلمانية ، أو المادية ، سنضع أيدينا علىٰ الشروخ التي تحكم هذه المجتمعات وعلىٰ درجة التماسك والتوحّد والانسجام التي تسود المجتمع المسلم .

إنه المجتمع الذي يرفض تعليق الإشباع ، أو صّده ، أو تحقيره ، أو كبته ، ويفتح الطريق علىٰ مصراعيه للتحقق بهذا الإشباع من خلال زوجة واحدة قد يصرن أربعة ، في حالات محدودة ، ومن خلال أسيرات حرب ـ يومها ولظروف مرحلية تاريخية ـ كن يأوين إلىٰ كنف هذا الرجل أو ذاك وفق شروط معينة ، لكي يتحقق الإشباع للطرفين ، ولكي لا يلجأن إلى الأبواب الخلفية ، هنالك حيث يتحول دورهن إلىٰ تخريب لقيم المجتمع المسلم ، وتمزيق لنسيجه المتوحد ، أو يحرمن من حقهن في الإشباع فتتعطل طاقاتهن عن العمل والمشاركة .

وهو المجتمع الذي يرفض ـ من جهة أخرىٰ ـ فتح الأبواب علىٰ مصاريعها وإباحة الإشباع بكل وسيلة وبأي أسلوب ، الأمر الذي يقود إلىٰ الميل والانحلال والفساد علىٰ كل المستويات ، والذي نشهد جانباً منه في العديد من التجارب الاجتماعية المعاصرة .

لقد كان تاريخ المجتمعات الإسلامية بمثابة تنفيذ لهذا التوازن الفذ ، لتلك الهندسة المعجزة ، والتقاليد التي صنعها دين يعرف كيف يحرّر الإنسان ويكرمه في الوقت نفسه ، يحّرره بالإشباع ويكرمه بالضوابط والحدود كي لا ينحدر عن إنسانيته صوب مستوى الحيوان .

ولئن شهدت بعض المجتمعات الإسلامية ـ أو قطاعات منها ـ انحرافاً عن هذا الأصل الموزون فهو الشذوذ الذي لا يقاس عليه بحال .

وامتداداً لهذه الرؤية المتوازنة إزاء المسألة الجنسية ، الرؤية التي

ترفض الترهبن أو الإباحيـة ، نلتقي بخط عريض آخر طبع حيـاة المجتمع الإسلامي عبر التاريخ وتميز بمجموعة من (التقـاليـد) الاجتماعيـة تجنبت الإفراط أو التفريط في ممارساتها .

طبعاً ، كانت هنالك علىٰ جانبيْ هذا الخط العريض محـاولات للإسراف من جهة ، وللترهبن والزهد والانكماش من جهة أخرىٰ ، ونحن نتحدث هنـا عن المحـاولات التي اختـار فيهـا بعض النـاس الانسيـاق وراء الإسراف ، أو الانـدفـاع صـوب الترهبن والـزهـد ، وليسـوا أولئـك الـذين أرغمهم الجـوع والطغيان ومطالب السلطة المترفة أن يترهبنوا ويزهـدوا ويعيشوا علىٰ كسر الخبز وأقداح الماء ، المسألة التي سبق وأن أشرنا إليهـا في الحـديث عن المحور الأول .

إن الخط العريض الذي يعنينـا هنـا هو الخـط الأكثر شمولاً وامتـداداً ، والذي كان يسم معظم قطاعات المجتمع الإسلامي ، والذي يقوم علىٰ التوازن في المسكن والمـأكل والملبس ، وفي ممـارسـات اللعب والترفيـه والـزينـة والمناسبات الاجتماعية الخاصة والعامة .

إن المجتمع الإسلامي هو ابن المعطيات القرآنية والنبوية ، إنه يقرأ يومياً في كتاب الله هذا النداء للتمتع بطيبات الحياة الدنيا شراباً وطعـامـاً ﴿ **كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ (٤٩)، ويقرأ هذا النداء للتزين والتجمل ﴿ **يـا بني آدم خـذوا زينـتكم عنـد كل مسجـد وكلوا واشربوا ولاتسرفـوا إنـه لا يحب المسرفين** ﴾ (٥٠) ، ويستمع إلىٰ توجيهـات النبي الكريم ﷺ بـأن يكـون لكل مسلم بيت يحميـه وفرس يركبـه ، فضلاً عن زوجـة يـأوي إليهـا ، فيكـون طبيعيـاً أن ينـال حظـه من الطعـام والشراب والملبس والمسكن ، ويكـون

---

(٤٩) سورة طه (آية ٨١) .

(٥٠) سورة الأعراف (آية ٣١) .

طبيعياً كذلك أن يتجاوز حدود الضرورات إلىٰ نوع من التزين والتجمّل يمنح هذه الممارسات إطارها الحسن « وديكورها » الجميل الذي يميز الإنسان عن الخلائق الأخرىٰ ، ويكون طبيعياً ، فضلاً عن هذا وذاك ، أن تمتلىء أيام المسلمين بمناسبات الفرح والبهجة ، بالأعياد والاحتفالات والتقاليد الجماعية ، وأن يكون المجتمع المسلم مجتمعاً سعيداً حقاً ، أليس هو - مرة أخرىٰ - ابن المبدأ القرآني الذي يناديه صباح مساء أن يأخذ حظه من الحياة الدنيا ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخره ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ (٥١) .

نلتقي بهذا المجتمع علىٰ اختلاف العصور وهو يمارس أنواعاً من التسلية والألعاب ، ويلبس ألواناً من الأردية ، ويأكل ويشرب صنوفاً من الطعام والشراب ويسكن أنماطاً لا حصر لها من الدور والقصور .

نلتقي به وهو يمارس الصيد وسباق الخيل علىٰ اختلاف طبقاته ، ويلعب الكرة والصولجان ، ويتنازل في الشطرنج ، ويرمي بالنشاب والبندق ، ويسمع الحكايات القصيرة والنوادر الهزلية والأحاديث المثيرة ويلعب (القراح) الشبيهة بالكريكت والتنس ، ويمارس السباحة والمصارعة .

ونلتقي به وهو يحتفل بأعياده ومناسباته ومواسمه ، ويكفي أن نتذكر ما كانت المجتمعات الإسلامية تفعله في عيديْ الفطر والأضحىٰ من التهليل والتكبير ، وإشعال الأنوار ، والتزين ، ولبس الجديد ، والتنزه في الشوارع والأنهار . وما كانت مواكب الحج تتضمنه من تقاليد (احتفالية) تناقلتها الأجيال ... ونتذكر - كذلك - الكثرة الملوحظة في الأعياد المنبثة علىٰ مدار

---

(٥١) سورة القصص (آية ٧٧) .

السنة ، فهناك ، فضلاً عن عيديْ الفطر والأضحىٰ ، أيام الجمع ، ويوم رأس السنة الهجرية ، ويوم عاشوراء ومولد النبيّ ﷺ ، وليلة أول رجب ، ومنتصفه ، وليلة المعراج ، وأول شعبان ، ومنتصفه ، وليالي رمضان المتألقة بأفراحها وتقاليدها .. وغيرها .

ولم تكن اهتمام هذه المجتمعات بالمسكن والملبس والمطعم بأقل من اهتمامها بالأعياد والألعاب ووسائل الترفيه . ولقد شهدت المدن الإسلامية مهرجانات شتىٰ علىٰ مستوىٰ الدور التي أعدوها للسكن ، والملابس التي تفننوا في تنويعها ، والمطاعم التي برعوا في طهيها وإعدادها ..

إن (زرياب) ، علىٰ سبيل المثال ، يغادر العراق إلىٰ الأندلس وهو يحمل خبرات اجتماعية خصبة يحاول أن ينشرها هناك ، فتلقىٰ محاولته قبولاً ، ويجد في المجتمع الأندلسي ساحة خصبة لتقديم فنونه في الأزياء والمطاعم والتقاليد المتأنقة والإتيكيت . ولم يقل أحد أن الرجل يهرطق وهو يقدم للأندلس خبراته المستجدة هذه ، ولم يعترض عليه عالم أو قاضٍ باسم الإسلام ، بل علىٰ العكس ، كان التقليد الإسلامي الأصيل في الإقبال علىٰ (الطيبات) ، والتزّين ، وغياب أي إحساس بالازدواج بين مسرات الدنيا والكدح للآخرة ، كان هذا كله مما جعل تجربة (زرياب) ، وغيره ، تلقىٰ نجاحها المعروف الذي تحدث به المؤرخون .

فكان من بين ما طلع به علىٰ الناس هناك ابتداع أزياء جديدة ، وتغيير الملابس مع تغيّر الفصول ، ففي الصيف يتحتم عليهم أن يلبسوا الملابس البيضاء وفي الربيع الملابس الحريرية الخفيفة ، والقمصان ذوات الألوان الزاهية ، أما الملابس الثقيلة التي يكثر في تكوينها الصوف والفراء ، فموعدها الشتاء ..

وهو لم يكتف بذلك بل تحول إلىٰ تسريح الشعر ، وترتيب أثاث المنازل ، ويقال إنه فتح في قرطبة معهداً لتدريس فن التجميل !

وعلىٰ مستوىٰ الطهي نقل (زرياب) الكثير من الأكلات البغدادية إلىٰ الأندلس وابتكر أنواعاً جديدة من الأطعمة ، وقدم صيغاً جديدة في تناول الطعام ، فكانوا يبدأون بالحساء ثم يقدمون اللحوم والطيور ، وينتهون بالحلوىٰ .

ويكفي أن نطالع قوائم أسماء بعض الأطعمة السائدة في مدن العالم الإسلامي من لحوم دجاج وجدي وضأن وبقر وسمك وطيور ومن فالوذج ولوزينج وقطائف وهرائس وحلوىٰ وفاكهة ، وأسماء العصائر والمرطبات والمشروبات ، لكي ندرك ـ هنا أيضاً ـ أن المجتمعات الإسلامية لم تقصرّ في الاستمتاع بما أحله لها الله من الطيبات حيثما وجدت إلىٰ ذلك سبيلاً .

ولن يتسع المجال للحديث عن تفنّن هذه المجتمعات في دورها ومساكنها وحدائقها ومتنزهاتها وأماكن لهوها واحتفالاتها ، وهو أمر أوضح من أن يؤكد بشاهد أو يوثق بدليل .

إنها ـ بإيجاز وتركيز ـ معادلة التوازن بين الطموح للآخرة والتمتع بطيّبات الحياة الدنيا .. جدلية الوفاق والتناغم بين الروح والجسد ، بين نداءات الخلود وضرورات التبدّل والتغيّر والزوال .

ولم نسمع يوماً ـ إلاّ في حالات التعصّب أو الانحراف ـ عن دعوة فقيه أو مؤسسة لتكفير المجتمع المسلم وهو يأكل الطعام الجيد ويلبس الثياب الحسنة ويسكن البيوت الأنيقة .. أو وهو يلعب ، ويحتفل ، ويغنّي ، ويتسابق ، ويفرح بأعياده ومناسباته .

لقد كان ذلك أمراً طبيعياً ، تماماً كما كان التشبث بالأخرة والسعي إليها

أمراً طبيعياً ، بل ضرورياً ملزماً ، فلم تكن العلاقة بين المارستين علاقة تناقض أو صراع وإنما كانت علاقة وفاق وتنافم وتداخل وامتداد .

وليس ثمة في تاريخ البشرية مجتمع قدر علىٰ ، الحفاظ علىٰ هذا القدر من التعايش بين الدنيا والأخرة علىٰ الأرضية الاجتماعية ، كالمجتمع الإسلامي ، فإن المجتمعات الأخرىٰ إما أن تكون متدّينة تبحث عن مملكتها في السماء فتنسىٰ نصيبها من الدنيا ، أو كافرة منحلّة تنكبّ علىٰ دنياها كما تنكب الحيوانات العجم علىٰ الأرض الخضرة دون أن ترفع رؤسها إلىٰ السماء لكي تلبي مطالب الروح العليا .

أما هنا ، في تجربة المجتمع الإسلامي ، فإن (الإنسان) يأخذ موقعه الحق ، ولولا ضغوط الشرّ والضلال ، وطغيان السلطة وترفها ، من جهة ، ودعوات الرهبانية للتزهّد والتقشف الذي يجاوز المعقول من جهة أخرىٰ ، لما وجد المجتمع الإسلامي حتىٰ تلك التوجّهات الاستثنائية المنحرفة ذات اليمين أو ذات الشمال ، ولكان خطّ التوازن هو الخطّ العريض الذي يميّز الحياة الإسلامية عبر العصور .

* * *

(٣)

والآن فإن لنا أن نضع أيدينا ، بأكبر قدر من التركيز والإيجاز ، علىٰ الملامح الأساسية التي تميز المجتمع الإسلامي عن المجتمعات الأخرىٰ ، والتي تستمد نسيجها المتفرّد وصيغتها المتميزة من معطيات كتاب الله وسنة رسول ﷺ وممارسات الواقع التاريخي المشهود .

إن الملامح الأساسية العريضة في المجتمع الإسلامي ، أو خصائصه الشاملة يمكن أن تركز بالخطوط التالية ، وهي خطوط يمكن أن نجد بعض امتداداتها في مجتمعات أخرىٰ ، قد تلتقي نوعياً أو كمياً مع ما يمارسه المجتمع الإسلامي ، ولكنها علىٰ كل حال لن تكون بهذا القدر من التكامل والشمول والارتباط ، إنها هناك مزق وتفاريق ، ولكنها هنا توحد وتداخل مرسوم يسعىٰ لتحقيق أكبر قدر من الفاعلية والالتزام في نطاق هذا المجتمع **إنه -**
أولاً - مجتمع متوازن ، علىٰ كل الأصعدة وفي كافة المستويات ، توازن بين الروح والمادة بما أن الإنسان نسيج متوحد من لقاء القطبين ، بين الفردية والجماعية بما أن المجتمع الإسلامي هو مجتمع الإنسان والجماعة علىٰ السواء ، بين الضرورة والجمال بما أن اهتمامات الإنسان السويّ موزعة بالعدل على الجانبين ، بين المنفعة والقيم بما أن عجلة الحياة المؤمنة لا تمضي إلى هدفها دون تحقق الوفاق بين حاجات الناس العملية والتزاماتهم الخلقية وإلا جنحت بهذا الاتجاه أو ذاك وفقدت ملامحها أو قدرتها علىٰ الفاعلية ، توازن بين التعامل مع الطبيعة والامتداد إلىٰ ما ورائها بما أن الموقف الإيماني الصحيح هو الذي يمدّ رؤيته هنا وهناك ، يتحرك علىٰ أرضية العالم ويمتد إلىٰ الآفاق البعيدة ، فيما وراء العالم القريب حيث الإيمان بالغيب يشكل ركيزة كل إيمان ويرتفع بالإنسان إلىٰ المكانة التي تليق به كإنسان .

إن الإسلام يدعو إلىٰ مجتمع تنمو معطياته علىٰ كل المستويات الروحية

والأخلاقية والطبيعية .. وثمة ما يبدو واضحاً في كتاب الله : إن كل أية تتناول مسألة طبيعية أو حيوية أو مادية تنتهي بأفعال التقوى والإيمان ، وبالدعوة إلىٰ ربط أيّة فاعلية بالله .. وهذا التأكيد المتكرر له مغزاه : إن منطق التوازن الحركي الذي يرفض الانحراف أو السكون هو القاعدة التي نتلمّسها في القرآن الكريم بوضوح من خلال عدد كبير من آياته والتي تكفل نمواً سلياً لأي مجتمع يريد أن يحافظ علىٰ نقطة التوازن بين تجربتي الروح والمادة ولا تنحرف باتجاه أحداهما مهملة الأخرىٰ أو ضاغطة عليها ، مستخدمة إزاءها أساليب القمع والكبت والتحديد .. التوازن الذي يمكن المجتمع من الحركة الدائمة ، لأن الأهداف التي يضعها أمامه تأخذ مستويات صاعدة لا يحدّها أفق ولا يقف في طريقها تحديد صارم . إنها تبدأ بتأمين متطلبات الحياة اليومية المباشرة ، وتتقدم ـ بعد هذا ـ صوب اعمال الفكر في قلب العالم للكشف عن نواميسه ، أو في أمداء الكون لإدراك سرّه المعجز .. هذه الفاعلية الفكرية التي مالها من حدود تقف عندها .. ومن ثم يوالي المجتمع الإسلامي خطواته لتنفيذ أكبر قدر من ضمانات التجربة الروحية الشاملة ، وإيصالها إلىٰ مطامحها التي تتجاوز الأرض إلىٰ أعماق السماء ، وتغادر اللحظة الموقوته العابرة إلىٰ عالم الخلود .. إن مجتمعاً يسعىٰ إلىٰ تغطية متطلبات الغريزة والفكر والوجدان والروح بهذا القدر من التوازن ، لا يمكن أن يبلغ حالة السكون أبداً .

وهو ـ ثانياً ـ مجتمع متحرر علىٰ كل المستويات .. علىٰ المستوىٰ الفكري والوجداني والفلسفي ـ إذا صح التعبير ـ حيث يغدوا الإنسان سيد العالم ، وحيث لا يستعبده خوف من طبيعة أو انكماش إزاء المجهول أو أسرّ تجاه المصير ..

علىٰ المستوى التعبيري حيث يستطيع الإنسان أن يقول ما يشاء

ويكتب ما يشاء في مدىٰ المساحة الواسعة الممتدة التي يمنحها الإسلام للمنتمين إلىٰ مجتمعه ، وهي مساحة كبيرة لم توازها أو تضارعها أية تجربة أخرىٰ رغم ما يضعه الإسلام من ضوابط ومعايير والتزامات إزاء حرية التعبير .

علىٰ المستوىٰ الاجتماعي حيث لا تستعبده الضرورات أو تغل حركته ونشاطه حواجز طبقية أو حاجات يومية يعرف الإسلام كيف يضمن توزيعها علىٰ الناس بالعدل والقسطاس ، وكيف يمنع تحولها إلىٰ جدار يصد الناس عن الذهاب إلىٰ الآفاق البعيدة ، متحرّرين ، تلك التي جاء هذا الدين لكي يقود الناس إليها .

علىٰ المستوىٰ النفسي حيث لا يميل الإنسان صوب الإشباع المادي وحده فتنكمش وتضمر إهتماماته الروحية والوجدانية ، ويفقد توازنه بالتالي ، وحيث لا ينحرف باتجاه الروح على حساب الضرورات : إن توازن الإنسان في المجتمع المسلم هو أساس تحرّره ، لأنه بدون تلبية نداء التكوين البشري بكافة أطرافه ومساحاته لن تكون هناك حرية بمعنىٰ الكلمة ..

وهو ـ ثالثاً ـ مجتمع متكافل .. حيث يلتقي الفرد بالجماعة في وفاق عميق ، وحيث تتعاضد الجماعة الإسلامية وتتعاون وتتآسىٰ في كل صغيرة وكبيرة .. من أجل التحقق بأكبر قدر من التناغم والانسجام لدفع عجلة الحياه الإسلامية إلىٰ الأمام وإعانتها علىٰ مواصلة الطريق ..

إن أي مجتمع إسلامي هو ـ بالضرورة ـ مجموعة مسافرين في مركب واحد ـ كما يصورهم نبيّهم ومعلمهم عليه السلام ـ وأنه يتوجب عليهم أن يتكاتفوا من أجل مجابهة المخاطر والاستجابة للتحديات ومنع كل ما من شأنه أن يحدث ثغرة قد يتسرّب منها الماء وقد يقود الجميع إلىٰ الغرق

المحتوم ، إنـه يتوجب عليهم أن يعملوا يـداً واحـدة من أجل أن ينطلق بهم المركب في عرض البحر وصـولاً إلىٰ الشـواطىء البعيـدة لكي يلقي مرسـاتـه بأمان ..

إن المجتمع الإسلامي ، كما صوره الرسول ﷺ أيضاً ، هو كالجسد الواحـد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ !!

وهو - رابعاً - **مجتمع أخلاقي منضبط** .. يلزم أفراده ومؤسساته بحشد من القيم والمعايير والضوابـط من أجل ألا يجنح بـه ميل أو هوىٰ ، وألا تنحرف به نزوة أوْ شهوة . إننا نستطيع أن نعاين الصورة المضيئة لأخلاقيات المجتمع المسلم بمجرد القيام بعرض مقارن بينه وبين سائر المجتمعات تلك التي لا تهمها المسألة الأخلاقية إلا بمقدار ، أو التي لا تهمها علىٰ الإطلاق ..

إن الالتزام الأخلاقي للمجتمع الإسلامي يرمي إلىٰ تكوين أخلاقية خاصة بـالجماعـة المـؤمنـة تنبثـق في أعمـاق الفرد لكي مـا تلبث أن تعطي لـونهـا للعلاقات الاجتماعية كلها ، وإن القيم الأخلاقيـة لتمثل - بحق - مراكز الثقل في حضارات الأمم ، وشحنات الدفع في مسيراتها ، وتكاد علاقتها الضرورية للنمـو الحضـاري تبـدو طرديـة بـاستمرار علىٰ مستـويي الكيف والكم ، فكلما التزمت جماعة ما بمزيد من القيم الأخلاقية وكلما سعت إلىٰ صقل هـذه القيم وتأصيلها في أعماق البنية الاجتماعية ، كلما تمكنت من حماية وحدتها وابعـاد شبح التفتت والتدهور والسقوط بالتالي ، وكلما بدأت جمـاعـة مـا بـالتخلي عن هذه الالتزامات ، وإطراحها جانباً ، وعدم السعي لبلورتها وتعميقها في الممارسة الجماعية كلما عرضت وحـدتهـا للتفتت وأذنت نشـاطهـا ومستقبلهـا بمصير سيء قريب .

إننا نرىٰ اليوم بأم أعيننا كيف أن بقـايـا القيم الأخلاقيـة التي يتميز بهـا

رجل العالم المتقدم ومجتمعاته ، من صدق وأمانة وتحمل للمسؤولية وشجاعة وإخلاص وصبر وتضحيه ومن رفض للكذب والغش والخيانة والتهرب والجبن والجزع والأثرة ، هي التي تلعب دورها الواضح ، علىٰ المستوىٰ العملي ، (البراغماتي) في تفوق هذا الرجل وذلك المجتمع ، في عالم لم يعد يعترف ـ علىٰ المستوىٰ النظري ـ بالأخلاقيات ، مما يشير إلىٰ مدىٰ الثقل الواقعي لهذه القيم وارتباطها العضوي بأية ممارسة حضارية .

إن القرآن الكريم يطرح سلّماً من القيم الأخلاقية كثير الدرجات ، بعيد الإمتداد من خلال مئات الآيات المنبثة هنا وهناك ، والتي لا يسعنا الإشارة إليها ، والتي تجيء في معظم الأحيان ملامسة لواقعة تاريخية قريبة أو بعيدة ، معلقة عليها ، مستمدة منها قيما جديدة وذلك من أجل أن ترتبط (القيمة) الخلقية ارتباطاً شرطياً في ذهن المسلم ونفسه ، وتزداد توغلاً في أعماقه ، وتأصلاً في علاقاته مع المجتمع الذي يتحرك فيه ، ولا جدال في أن القيم الخلقية المنبثقة عن الرؤية الإيمانية والحسّ الديني ، تكتسب موضوعية في ميدان العلاقات ، وعمقاً في ميدان الذات لا نجد عشر معشارها في الأخلاقيات الوضعية المبنية علىٰ الموقف المصلحي والتبرير البرغماتي (الذرائعي) . إنها آنذاك سوف تفقد موضوعيتها وشموليتها وتقع في أسر التحيز والنسبية ، فتحوّر وتزيف ، حيناً ، من أجل أن تلائم مصلحة ما أو منفعة معينة ، وتلغيٰ أو تستبعد ، حيناً آخر ، لأنها لا تنسجم أساساً ومتطلبات الموقف النسبي هذا إلىٰ أن هذه القيم ستفقد بعدها العمقي وتغدو أكثر قلقاً واهتزازاً ، الأمر الذي يفقدها قوتها الإلزامية وثباتها وديمومتها . وإننا بمجرد إلقاء لنظرة عجلىٰ علىٰ التاريخ البشري سنتّبين بوضوح هذا الفرق الحاسم بين قيم أخلاقية دينية موضوعية شاملة عميقة متأصلة ، وبين قيم أخلاقية وضعية نسبية محدودة سطحية قلقة ..

ولشدّ ما لعب هذا التقابل الأخلاقي في دوره في التاريخ ، وغطىٰ مساحات واسعة لا تبررها بأية حال النظرة المادية الضيقة أو المثالية الفضفاضة .

إن مقياس التفوق الحضاري لا يكمن في حجم الإنتاج الكمي بقدر ما يكمن في مدىٰ أخلاقية المجتمع المتحضر ، وسعيه لخدمة الأهداف الإنسانية الشاملة . وإننا بمجرد أن نلقي نظرة سريعة علىٰ حضارتنا الإسلامية في عصور تألقها ، ونقارن ذلك بمعطيات الحضارة المعاصرة ، علىٰ المستوىٰ الإنساني ، سنضع أيدينا علىٰ قيمة هذا (المقياس) وأهميته القصوىٰ .. إن مجتمعات الحضارة المعاصرة تتجاوز ـ حتىٰ علىٰ مستوىٰ الفكر والفلسفة ـ حدود الموضوعية الشاملة ، وتهبط كثيراً عن أخلاقية الإنسان ، بما هو إنسان ، فتحصر أهدافها ومعطاياتها في نطاق دولة أو عرق معين كما هو الحال عند (هيغل) ، أو طبقة معينة كما هو الحال عند (ماركس) ورفاقه ، أو على أحسن تقدير في إطار وحده حضاريه معينة كما هو الحال عند (توينبي) . هذا بينما تطرح مجتمعات الحضارة الإسلامية وحدها شعاراتها الإنسانية الشاملة الرحيبة المنبثقة عن قيم الحق والعدل التي صاغها القرآن : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم علىٰ ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ ..** ﴾ (٥٢) ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربىٰ** ﴾ (٥٣) .

الصدق ، الأمانة ، تحمل المسؤولية ، الشجاعة ، الصبر ، الإخلاص ، التضحية ، الإيثار ، مقاومة إغراءات الشهوة ، التجرد ، الصمود ، التزام الحق والعدل بمقاييسها الموضوعية لا المنفعية .. إلى آخره .. ويطرح القرآن بالمقابل ـ النقائض السالبة لهذه الأخلاقيات كالكذب والغش والتزوير

---

(٥٢) سورة المائدة (آية ٨) .

(٥٣) سورة الأنعام (آية ١٥٢) .

والتهرب والجبن والجزع والأثرة والانسياق وراء إغراءات الشهوة والمنفعية إلىٰ آخره .. داعياً المسلمين أفراداً وجماعات إلىٰ مكافحتها دون هوادة ، وإلى استئصالها من أعماق نفوسهم . وإمداء علاقاتهم الاجتماعية رابطاً إياها بمسألة الصراع الدائم الذي لا يكف بين الإنسان والشيطان .. بين الخير والشر .. من أجل أن يمنح الإنسان المسلم قاعدة واسعة لتصوّر الموقف ، وإيماناً عميقاً بضرورة المقاومة واستجاشة لكل طاقاته من أجل الانتصار ، الذي مهما كان جزئياً فإنه في النهاية سيضيف قوة إلىٰ الرصيد الأكبر في صراع الخير ضد الشرّ والإنسان ضد الشيطان .

وتكاد المسألة تبدو في المجتمع المسلم ، أو في أي مجتمع أشبه بمعادلة رياضية واضحة كلما تجاوز الإنسان والمجتمع ، في حضارة ما ، درجة أكثر في سلّم القيم الخلقية ، كلما تقدم خطوات إلىٰ الأمام ، وامتلك مزيداً من ضمانات الديمومة والتطور ، وبالعكس ، يجيء الرجوع ، أو السكون ، أو التفتت والانهيار ، بالإشاحة عن هذه القيم وإسقاطها في ميادين الذات والمجتمع واحدة بعد أخرىٰ ..

وهو - خامساً - **مجتمع حركي** ، يلتزم غاية في الوجود يعيش لها ويتحرك من أجلها . جهاد الطاغوت في العالم كله حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين لله .. وجهاد النفس حتىٰ لا يتبقىٰ في طبقاتها ومنحنياتها ما يميل بالإنسان المسلم يميناً أو شمالاً .

إنه صراع أبدي علىٰ مستوىٰ الذات والجماعة من أجل التحقق بالسير علىٰ الصراط والتحرّر من ضغوط الشرك التي يمارسها الطاغوت في كل زمان ومكان .. مجتمع لا يعرف السكون ما دامت النفس البشرية تحمل ميلها الأبدي للهوىٰ وجنوحها للطين ، وما دامت زعامات الدنيا تحمل ميلها الأبدي للتجبّر والقسر وإرغام الناس علىٰ طاعة ما لم يأذن به الله ورسوله .

إن الإسلام يدعونا علىٰ المستوىٰ النفسي ، الداخلي ، لأن نمارس باستمرار أخلاقية أو عملية التغيير الذاتي ، أو ما سماه الرسول ﷺ (الجهاد الأكبر) لكي نكون قديرين دائماً علىٰ المجابهة ، مستعدين أبداً لكشف المواقف اللاأخلاقية وتعريتها وعزلها ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾ (٥٤) ﴿ **ذلك بأن الله لم يكُ مغيراً نعمة أنعمها علىٰ قوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم والله سميع عليم** ﴾ (٥٥) ..

وهو يدعو المجتمع المسلم ـ علىٰ المستوىٰ الخارجي العام ـ إلىٰ الجهاد ، والجهاد كما هو معروف ، وكما يرد في عدد كبير من معطيات القرآن والسنة ، هو حركة المسلمين الدائمة في العالم لإسقاط القيادات الجاهلية الضالة ، وإتاحة حرية الاعتقاد للإنسان حيثما كان هذا الإنسان ، بغض النظر عن الزمن والمكان والجنس واللون واللغة والثقافة والانتماء ، إنه ـ في الحقيقة ـ مبرر وجود الجماعة الإسلامية في كل زمان ومكان ، ومفتاح دورها في الأرض ، وهدفها العقيدي المعاصر [illegible] ، وضمن ديمومتها وتطورها ، وبدون هذه الحركة الجهادية يسقط هذا المبرر ويضيع المفتاح ، ويفقد المجتمع المسلم قدرته علىٰ الوحدة والتماسك والاستمرارية والبقاء .

إن الجهاد كهدف إيماني حركي دائم ، أشبه بعامل عقائدي ـ اجتماعي يشدّ أفراد المجتمع الواحد بعضهم إلى بعض ، ويوجههم صوب بؤرة واحدة ، ويدفعهم إلىٰ تجاوز السكون والتحرك الدائم إلىٰ إهداف أبعد فأبعد ، وهذا ـ بطبيعة الحال ـ يجيء بمثابة ضمان أكبر لوحدة المجتمع المسلم وتماسكه واستمراره

(٥٤) سورة الرعد (آية ١١) .
(٥٥) سورة الأنفال (آية ٥٣) .

وصيرورته التحريرية المبدعة . وعلىٰ العكس ما أن تفتر روح الجهاد في نفوس المسلمين أفراداً وجماعات ، قيادات وقواعد ، حتىٰ تتفكك عرىٰ وحدتهم وتتعدد أهدافهم ، وتميل تجربتهم الاجتماعية إلىٰ التباطؤ فالسكون ، وتتساقط مواقعهم الأمامية . وبدلاً من أن يسددوا ضرباتهم إلىٰ القوىٰ الجاهلية ، ويمتلكوا زمام المبادرة الاستراتيجية في العالم ، إذا بهم يتلقون الضربات من هذه القوىٰ ويتراجعون صوب المواقع الدفاعية في الخطوط الخلفية .

فهي الهزيمة - إذن - علىٰ كل المستويات السياسية والعسكرية والاستراتيجية والعقيدية والحضارية في نهاية المطاف . وإننا لننظر إلىٰ تاريخنا فنرىٰ في هذا الالتزام الكبير معادلة رياضية ، فحيثما سادت روح الجهاد مجتمعاً إسلامياً حيثما تمكن من حماية وجوده ، وتعزيز وحدته ، وضمان ديمومته العقائدية وإبداعه الحضاري واتساع ميادين نشاطه في العالم ، وحيثما افتقدت هذه الروح الجهادية وطمس عليها في مجتمع آخر ، حيثما فقد مبرر وجوده وتمزقت وحدته ، وتباطأت اندفاعيته العقائدية واضمحلت منجزاته الحضارية وتقلّص دوره في العالم وآل أمره إلىٰ التفكك والانهيار .

وهو - سادساً - مجتمع عالمي مفتوح ، حيث جاء الإسلام لكي يخاطب الناس كافة ، ويمد يديه إليهم حيثما كانوا في المكان والزمان لكي يخرجهم من ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام ، لا تصده عن هدفه حواجز عرقية أو مذهبية أو طبقية أو جنسية أو جغرافية .. وهو في الوقت نفسه يتيح لكافة المنضوين تحت لواء قيادته وسلطانه أن يبقوا على أديانهم وعقائدهم ، وأن يمارسوها بحرية تامة ما داموا قد غدوا مواطنين في دولة يسوسها الإسلام . إن انفتاح هذا المجتمع المسلم علىٰ الطوائف كافة ،

والـذي أتينـا علىٰ بعض شواهـده في هـذا الفصل ، لهو مثل فـذّ في تـاريـخ المجتمعات البشرية ، لم ترق إليـه أيـة تجربـة أخرىٰ في القـديم أو الحـديث ، ولن ترقىٰ إليه . وهو من خلال هذا الانفتاح كان ينفـذ مبـدأ تكافؤ الفرص لكافة المنضوين إليه أو المنتمين لسلطانه وقيادتـه بحيث أتيح لكل من يملـك قدرة أو ابداعاً في هذا الجانب أو ذاك أن يعبّر عنهما بالصيغة التي يريـد ، ويتقدم إلىٰ الأمام في موقعه الاجتماعي ، مسلماً كان أم غير مسلم ، عربيـاً أم غير عربي ، غنياً أم فقيراً حرّاً أم مملوكاً ..

وهو ـ سابعاً ـ وأخيراً ، مجتمع واقعي لا يضرب في تيه الأخيلة والأوهام ولا يحلم بعالم مثالي وهو قاعـد مستريح ، ولكنـه يسعىٰ إلىٰ تنفيـذ مقولاتـه علىٰ أرضيـة الواقع ، وينسج مصيره من حيثيـات الـزمن والمكان ، ويستنـد إلىٰ مـا هو كائن من أجل صيـاغـة مـا سيكون ، ويعيـد تشكيل معـادلات الحياة من الأرقام اليومية المنظورة التي يتعامل معهـا صبـاح مسـاء لكي مـا يلبث أن يتجـاوز القيم المحـدودة لهـذه الأرقـام صـوب قيم أكبر وأغنىٰ وأكثر امتداداً .

ومن أجل هذا ضرب المجتمع الإسلامي جذوره في أعماق الأرض ، وقـدر في الوقت نفسه علىٰ أن يمدّ فروعه إلىٰ السماء ..

د . عماد الدين خليل

الفهرس